

ملفوظات الوحيانية

العشر

"عام عيسى"

هلاوس الوسادة العشر
عصام عيسى / كاتب مصري
الطبعة الأولى يناير 2017
978 -977 - 6445 -67 -3 /ISBN
رقم الإيداع: 2016/10440

All rights reserved. No part of this book may be reproduced, stored in retrieval system, or transmitted in any form or by any means without prior permission in writing of the publisher.

جميع الحقوق محفوظة. لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أي جزء منه أو تخزينه في نطاق إستعادة المعلومات أو نقله بأي شكل من الأشكال، دون إذن خطي مسبق من الناشر.



دار الكتب

Daralkotob

غلاف: NileDesign.com

دار الإبداع للنشر والتوزيع

موقع دار الكتب

أبراج عثمان- كورنيش المعادي

القاهرة - مصر

هاتف: 01002052266

E-mail: info@daralkotob.com

www.daralkotob.com



daralkotob

ملفوظات الودعة

العشر



دار الكتب

Daralkotob

obeikandi.com

إهداء.....

إلى من تو فاما الله مبطونةً بالسرطان ونحن صغار
ووسدناها الثرى.... بقلب راض... ونفس مطمئنة
إلى أمي.. رحمها الله

obeikandi.com

تلك اول عمل لي.. تجربة ساقها حلم في الصبى.. افكار خطها
القلم دوغما اسراف... املة في طريق الادب اللا متناهي.. لن ابلغ
مثل ما بلغوا.. ولكنها افكارا تحولت الى عبارات وقصة مستوحاة
ليست من الواقع في شئ وانما قالب شكل به ما اردت ان اوصله
من هلاوس عبث بمخيلتي.... وما خط بها لا علاقة له بالواقع في
شئ، كل ما هنالك ان احداثها لا تعدو ان تكون مجرد اعمدة
قامت عليها جدران روايتي الاولى... اردت ان افصح بعض هلاوسنا
على الوسادات.. ان اعبر جسر الجبن المقام على ضفاف احلامنا
المخفاة في نفوسنا.. فسامحني ايها القارئ العزيز على كل اطالة ان
كان فيها ملل وكل تقصير ان كان فيه جلل..

obeikandi.com

كانت البلدة ساكنة في تلك الليلة من ليالي الشتاء القارص،
والبرد والصقيع قد أنهك كل لهث وراء المادة، وأحمد كل شهوة
للمال، وأسكت كل ضجيج المقاهي للكسالى.. سوى مقهى اعتاد
ذوو الهامات العالية والياقات البيضاء التجمع عليه ليلاً؛ ليروي كل
واحد منهم بفخر وتعالٍ موقف تافه لا يجسد سوى السعي خلف
لذة إثبات الذات وإثبات أفضلية كل منهم على الآخرين....
فيروي أحدهم موقفاً تعالي فيه على آخر، ويروي الثاني شبيهه
ولكنه قد سب ولعن هذا أو ذاك، أما الثالث.. فشغله الشاغل
ملبسه وسيارته ونظارته، والباقون أشباه بعضهم البعض..
يتقاصون الروايات ويتحاكون الخرافات، وينسون أنهم ما اجتمعوا
إلا لخيبة أملهم في المستقبل ولفقدانهم ذاتهم، فلم يبرحوا
مضاجعهم إلا عندما أفلت الشمس ولوحت بالمغيب.

هم يبدأون يومهم حيث انتهى الآخرون.. يفتتحون اليوم وقتما
يختتمه أصدقاؤهم الذين يجلسون على ذات المنضدة بذات
المقهى، وهناك.. كنت أتلقت ميمناً ويساراً.. لا أنقصهم عاراً حينما
أحدث شبيهي في الفقر والكفاح عنهم.

فلا طالة لنا من تجمعت الأموال تحت أقدامهم وبعثروها تحت
برائن القلق والتوتر، واتخذوا منها نهراً يرتشفون منه حفنةً بعد
حفنةً إذا لاح لهم مرور قطار العمر.. دون شعاع أمل يتسلل من
بين حنايا نافذة البطالة، أو حتى من تحت أعقاب أبواب الفراغ...

كنت أختلس الحديث، وكلانا ينظر إليهم نظرة شفقة.. لا حسد أو طمع؛ فرغم قلة راتبنا من وظيفة أنعم الله علينا بها.. إلا أننا عندما نتجمع ليلاً أستمع قواي من شراشف السرير الذي ضاجع الزمن عليه أحلامهم البائسة؛ حتى حملت بين أحشائها طفلاً سفاهاً هو اليأس والفراغ.. طفلاً عصر البطالة الذي تفشى بين الجموع...

طيف خفي يجمع بيننا في بلدة لا تحمل سوى الضجيج نهائياً والهدوء ليلاً..... في النصف الأول من يومها هي غابة.. وسكانها وحوش.. الكل يعوي.. الكل يعدو.. والكل يتربص بغيره؛ فلا مكان في الغابات للضعفاء، أما ليلاً. فهي كالطفلة الموءودة خوفاً من عارها، أو كالمقابر وسكانها أموات قد ضمتهم قبورهم.. بيوت كالمقابر.. بيوت جثث لا تعرف الله...

ويلوح البرد عندما يشتد لنا لنعود لمنازلنا.. هكذا كنا، وهكذا كانت بلدتنا، وهكذا بدأت قصتنا، وهكذا كانت سبباً لنهايتي.. فمن البداية تنتهي، ومن القطع الوصال.

ومن دائرة الحياة نقطة بدايتك هي نقطة نهايتك.. ومن اللون الأسود والأحمر نسجت أقدارنا.. فمن الحزن والدموع خلق المداد الأسود لأقلام الدهر، ومن الدماء خلق المداد الأحمر لريشة رسام المصائب، ولا حاجة لنا بسائر الألوان؛ فما هي إلا أوراق لدفتر يوميات الحياة.....

الهدوء الهلوسه الهول

بداية الدائرة هي حفل زفاف أحد أصدقائي القدامى، وما حضرته إلا لظنه في بأنني الصديق المخلص له في هذا العالم -وتأكيداً لذلك الظن- لم يكن حضوري تأدياً لواجب؛ فقد أدت من الواجب ما يكفيني، ولا بحثاً عن أنثى وزوجة أخرى غير تلك التي تزوجتها ببلدي؛ فلدي من الهموم ما يكفي أن يقتل بذور تلك الفكرة في عقلي كلما حاولت أن تنبت.

حفل زفاف مقام في إحدى قاعات دار الدفاع الجوي.. وقد ارتديت بذلتي الجديدة، كنت أستحسنها من بين مجموعة بدل ابتعتها من فائض المصانع.

حفل زفاف وكأنه أقيم لي وحدي لأخترق ذلك العالم الذي كنت أخشاه، فما عرفت في حياتي منذ نعومة أظفاري سوى البؤس والحزن.

أتجمل وأتزين وأبدل في ملابسني أمام مرآتي - لا لأبهر من سألقاهم هناك - وإنما لئلا أكون غريباً عنهم، قروي مسكين يتحسس خطاه بين الحاضرين، ينظر في كل لوح زجاج أو مرآة ليتأكد فقط أنه ما

زال بخير، لا زال مهندياً ورابطة عنقه كما هي تطوقه كما طوق
من حوله.

يحاول أن يبدو بخير وطبيعياً؛ فلا يقوى، ينظر إلى الحاضرين كأنهم
أرستقراطيين وهو من البوليتاريا، لا يملك إلا أن يصفق متخسباً
مثلهم وابتسامة خفيفة مقيدة بأوداجه الحزينة.

فلقد تحولت قناعات الناس.. فالمهم لديهم هو ظاهره،
ملابسك، مقتنياتك، تصفيفة شعرك، ملامحك. أما باطنك وجوهرك،
حقيقتك، لا دخل لهم بها.. الخداع هو الرداء الذي نلبسه لنخفي
به حقيقتنا؛ فنقنع به كافة من حولنا حتى أنفسنا، ولا نجني سوى
مزيد من الخداع والكذب كرد عطاء ممن خدعناهم، حتى المرأة
تخدعنا فتعكس شخصاً غيرنا، نخدع وسادتنا؛ فتمنحنا مزيداً من
الأحلام الزائفة المرصع بها ذلك الرداء المزيف الذي ألبسناه الجسد.

أعلم أن الجميع مخادع.. الكل يتجمل ويتزين.. حتى
ضحكاتهم مصطنعة.. لا دخل لهم بمأساتهم الدفينة في نفوسهم.. لا
حسابات لتحملهم أفعالاً ومواقف وأشخاصاً طوقتهم كرابطة
عنقي.. فقط من أجل الناس.. هرباً من قضبان القيل والقال.. حتى
ذاك الشاب الممسك بيد زوجته الجميلة يحدثها ويهمس بأذنها،
وعيناه تتقافزان على كل النساء اللاتي وجدن.. خداع متقن.. وكذب
مباح.. كل ذلك من أجل البقاء.

أدقق وأتأمل في نفسي- وفي الحاضرين، ولا أعلم لم أفكر في حقيقة الأفعال ودوافعها دون جدوى.. فليخضع من يخضع، وليكذب من يكذب؛ فأنا أيضًا أعد نفسي- لأتعلم فنونهم، لأصبح مألوفًا، وأخفي كل قيم القرى المفضوحة، وكل عادات الفطرة المنبوذة، لأحرر أحلامي من قيودها، وأفر من الوسادة لبضع لحظات، أعلم أنني سأرجع بعدها منكمس الأحلام.

وما بين تلعثمي وارتبائي، دقت طبول القلب على أوتار شرايينه، رأيتها هناك.. فتاة خمرية اللون في وسط القاعة.. نحيفة ممشوقة، وفتانها الأسود كشر-يط حداد على الماضي بقلبي، وشفاهها الحمراء إشارة حمراء لكل خيال سافل، مسترسل شعرها الأشقر على أكتافها وكأنه يداعبها سرًا، زحام من حولي، مفاتها زحام بعقلي شلت حركة مرور الدم بالشريان.

وعلى الرغم من أنني تربيت على أن كل أنثى تعرت في جزء من جسدها هي فريسة سهلة لقليل من المتعة وكثير من إثبات الذات. . ولكنها لم تكن فريسةً، كانت الصائد دون أن تشعر، وكنت أنا الفريسة.. أنا المكبل بشباك أنوثتها الطاغية، الساقط في فخ حيويتها وحركاتها الجنونية، أنا الفريسة الساذجة.. القروي الذي طالما حلم بقصة ينتهك بها كل ما ألفه يومًا.

كانت تتحرك كسندريلا وتتراقص كطفل يبعثر أجزاء جسده دون حسابات.. يكفي فقط ليبهر الحاضرين أن يهتز؛ فيفوق كل راقصة في جذب الانتباه إليه...
كانت تتمايل كما تتمايل أوراق الشجر المحملة بقطرات الندى؛
لتنصبب منها لتروي ظمآن مثلي....

لا أعجز مني حينها ولا أضعف مني أمامها.. قد جئت ركبنا
غروري أمام جبروت شخصيتها، وانحنت كل آمالي العريقة أمام
طغيان جمالها.. تعالت أنفاسي، وأحسست أنني وحدي.. عدت
كطفل ملائكي وحدي، وكأنه قد انصرفت كل جموع شياطين
الحاضرين، أو ما حسبتهم شياطين؛ فهم من منعوني أن أحدثها...

هم من حجبوها لثوان ولحظات، تحركاتها بأشباحهم التي تتوارى
فيهم، وتتفافز على صحراء قلبي لتصنع من قفزاتها - دون أن
تدري- عاصفةً أخدمت ووارت كل جروح الحب قبلها، وكل رياح
كاذبة لم تحمل إلى قلبي سوى حبوب لقاح للحزن والألم واليأس؛
فلم تثمر إلا الندم والعصيان.

لم آبه بالحاضرين، وجهها طغى على كل أضواء الفرحة المتضاربة،
أنتبه إليها لدرجة أنني قد أسمع صوت أقدامها وسط كل الضجيج،
الإعجاب يوقظ الانتباه بجميع حواسك لتعمل جميعها في آن واحد
لشخص واحد والعزلة عما يدور حولك.

كانت هناك في آخر القاعة، لا.. أنا من كنت هناك بكل جوارحي حتى انتهت مراسم الفرح واستقلت سيارةً مرسيديس فارههً بجوار شاب في قرابة الثلاثين من عمره، ولأول مرة ترتجف أعصابي وتتناوب الأسئلة في عقلي الواحد تلو الآخر.. ماذا إن كان حبيبها؟ أو كان خطيبها؟ أو كان زوجها؟

لا أريد ما عكفت عليه من علاقة آثمة أو مدنسة.. لا دخل لها بأحلامي السافلة التي اعتدت عليها كلما ألقيت برأسي على الوسادة.. شيء بداخلي يصر-خ بأن طهارتي لديها.. وأحلامي في مقلتيها.. أريد بكارتها وبراءتها دون مساس بدناستي ونجاستي!!

وتتابعت الأسئلة الحائرة في ذهني.. ماذا إن كان يعني لها شيئاً؟ هل هو أفضل مني؟ هل وهبها شيئاً لم يوجد عند غيره؟ هل وهل ومليون هل وهل... وأنا أتوسل إلى صديقي ألا تفلت سيارتها منا....

لقد تولدت الغيرة في صدري قبل أن أقيم معها علاقة.. فما الحب إلا أنانية مطلقة ومبعثرة لمن أحببت حتى تنازعه فيما يحب ويبغض.. أن توجد في كل أفعالها حتى وإن كانت أفعالاً ممنوعة.. تلك الأفعال تصبح مباحةً إن كنت فيها.. حتى صرخات جنونها تود أن تكون فيها وسبباً لها، ومن أجلك أطلقت كل صرخة..

الحب هو الأنانية، بل الأنانية هي الحب المطلق لمن أحبته الأنا...

أفكار وأفكار.. حتى توقفت السيارة أمام كشك سجاير؛ فانتهزت الفرصة لأشتري سجائري التي ما نفذت إلا لبعثرة ما امتلأ برأسي من أسئلة، وأمام كشك السجاير أنا ورفيقها نقف لنفس الغرض: السجاير...

أنا لأبعثر أفكارى بشأنها، أما هو.. فذلك منبع أسئلة أخرى استعمرت عقلي؛ حتى طاح بي الخيال بعيداً لأتصور أنها هي من تدخن...

سيئ أن تتعلق بشخص.. سيئ أن تحبه.. تبتغي فيه الفضائل وتفترض فيه كل الرذائل والظنون، ولا ذنب له سوى أنك تعلقت به؛ فعلقت به كل ما عرفته وتعلقت به يوماً...

ولا ندري.. من نحب؟ ومن نتعلق؟ هو.. أم أنفسنا التي أرادته؟ ولماذا نحب شخصاً بعينه دون سواه؟ ولماذا ذلك الشخص من دائرة حياتنا نحن؟ وهل هناك في دوائر الآخرين أشخاص قد نغرم بهم أكثر؟

وهل الأقدار هي التي أرادت أن تمنع أحدهم لنقع في حب آخرين ما أحببناهم إن تقابلنا مع هؤلاء؟ ولماذا الجميلة في عيني قبيحة في عين غيري؟ ولماذا الجذابة لقلبي فاترة لقلب غيري؟

أسئلة وإجابات، والحقيقة أننا لا نحب إلا أنفسنا التي أرادت، هي من اختارت وفقاً للثوب الذي حددته ونسجته سلفاً.. هي من هدَّبت أطراف ثوب الحب وفصَّلته لمن سيرتديه، وكل ما هنالك أننا وجدنا الشخص المناسب لذلك الثوب بعد العناء، فلا نخلع عنه الثوب أبداً لكي لا يتعري أماننا؛ فنصدم من حقيقته؛ فنبحث عن لباس للثوب في مكان وزمان آخر، ولا دخل لنا بالعشق؛ فالعشق شيء آخر غير كل ما يحكى عنه.

نحن نرى مئات الفتيات والنساء، قد نشتهي إحداهن، ولكننا لا نعشقها دون مقدمات.. لا يأتي العشق هكذا، مخطئ من يظن ذلك؛ فللعشق أعمدة من الود والاحترام والرحمة والعشرة يرتكز عليها؛ لتبنى عليها أطواره، إعجاب فحب فعشق فشغف، ولا حاجة لي حينها بكل تلك الأسئلة، يكفي أنني أعجبت بها دون غيرها. أريدها ولا سبيل أمامي سوى أن أتخطئ كل تلك التساؤلات، وفلسفتي التي لا جدوى منها؛ فأنا لا أقوى على شيء سوى أن أرتمي على أعتابها، كما أرتمي بجسدي على الوسادة.

سأتمرد؛ فكم من الأحلام وَّلت دون أن أدري، وكم من أيام في عمري أدبرت دون أن أندم، وعمري ليس بالهين علي، و يقيني أن هناك ما بين أنفاسي نفس سيتمرّد ويقتل كل الأنفاس الأخرى؛ ليسقط كل أنظمة الجسد؛ ليرديني قتيلاً، ولن تغفر لي كل جيوش الصبر.

سأغتنم الفرص، ولن أخشى من هزيمة الضعف أمام عينيها، ولن أفتح أبواب عالمي الذي خلفته قرينتنا في، سأتغير وأجرب دون حسابات للخسائر، ولن أخشى المداد الأسود ولا الأحمر، فليخطط القدر بأي لون شاء.

سأرقبها وأبحث عنه، سأخرس كل مبادئ القديمة وقناعاتي الخاوية، ولن أصنع من وسادتي جـ سرا أعبر به كل ليلة إلى عالمي الخيالي.. فتحملني إلى أرض لم أكن بالغا يوماً.. وإلى زمن لم أعش فيه.. وإلى أقدار ملونة بغير لوني الأحمر والأسود.. . وإلى شخص لم أعرفه يوماً.

ولن أتلصص عليها دون جدوى كما كنت أتلصص من خلف شباك شرفتي على جارتنا، لن أظل حبيس دائرتي، وسأتسلق جدرانها وأهرب متخفياً بثوب جديد، لأمر من بوابات النفاق إلى دوائر الآخرين، تاركاً خيطاً خفياً يعيدني لدائرتي إن ضلت خطاي؛ فهناك زوجتي.. . هناك حب لم يمت بيننا يوماً.. إما هو التمرد ليس إلا.

هو الانحراف.. هو الدراكولا الذي يستدرج فريسته لينقض عليها ويغرس نابي الملل في جسدها المستسلم وهماً؛ ليصنع منها دراكولا آخر.. تفعل ما فعل بها.. وتخدع كما خدعت.

لا سبيل أمامي؛ فدراكولا الانحراف هو السيد في زماننا.. هو السم الذي نظنه عسلاً.. هو القضبان التي تسير عليها قاطرة مجتمعنا، هو الرافعة التي ترفعك عالياً لتصل إلى عنان السماء كلما كانت جعبتك مليئةً به.

هكذا كنت أقنع نفسي حينها، وتاهت أفكاري.. هل هو حب ولد
في وقت الميعاد؟ أم هو دراكولا سيغرس نابه بجسدي؟

وهل كنت مصاباً بذاك الفيروس وأنا بقريتي؟ أم إنه لا يصيب إلا
سكان المدن؟ وكيف وقد ظهرت أعراضه حينما كنت أتلصص على
زميلاتي بمدرستنا؟ وأنجسس على جارتنا الجميلة من ثقب بنافذة
حجرتي...

ربما لم تظهر أعراضه إلا حينما ساد الظلام في حياتي، وأوصدت
بوابات عالم الأحلام حتى على الوسادة.

ربما لم أعرفه إلا حينما ذقت مراره على يد سكان قريتنا؛ فاعتدت
عليه، جائز فيه الإدمان من أول رشفة، مخدر لا هلاك فيه إلا بعد
مرور أعوام وأعوام، لا يوجد مصل واق منه لدينا، ولطالما تفتشى-
فلا خوف ولا قلق منه؛ سأدمنه، وسأعلم من بعدي إدمانه، فلا
مصحات ستقي شره، ولا دواء سيشفى الجسد العليل منه.

obeikandi.com

الهلووسة الثانية

ليس بالغريب على أمثالي الذين يقنعون بكل شيء؛ لأنه لم يوجد بجعبتهم، ويتمنونه كل يوم وهم على الوسادة، يطلقون العنان لأنفسهم لكل شيء مباح وغير مباح، سهل وصعب، حلال وحرام، الكل ينصب نفسه رقيباً بالنهار على أفعال يستحلونها لأنفسهم بالمساء وهم على الوسائد، الفيروس يصيبهم بالظلام فقط، ويداعبهم تحت كل ضوء.

أما أمام الناس.. فهم قانعون، لا تشغلهم تفاهات، ولا تجرهم مغريات الحياة؛ فالمال آخر أمانهم، والنساء آخر شهواتهم. كذبة يكذبون بها على الناس، ويصدقونها في أحلامهم، ويظنون أنها قد تكون سبباً لإعجاب إحداهن.

كل من سبوها يوماً لعهرها، هي الفارسة لأحلامهم، والبطلة لرواياتهم، وسندريلا لقصصهم الساذجة التي ينسجونها قبل النوم، في هلاوسهم البسيطة، تكفي كبسولة هلووسة كل ليلة قبل النوم، وتلك كفيلة بأن تخدر كل آلام الواقع لليوم التالي.

فما الأحلام إلا هلاوس، وما العشق إلا الهلووسة الكبرى التي لا هلووسة بعدها سوى اليأس من أنه كان ضمن الهلاوس.

العشق هو القصة الأولى في كتاب ألف هلوسة وهلوسة، وما الحب إلا تلك الهلوسة التي نجعلها حقيقةً، والحقيقة التي هي الهلوسة بعينها.

هلاوس الوسادات بئر اغترف منه ما شئت بوسادتك؛ فلن يجف ولن ينضب، ولن تنفد وتنحسر هلاوسه طالما رأسك على الوسادة.

أول خروجي من صومعة قريتنا عندما حلم والدي بأن يجعلني ألتحق بأية كلية

عسكرية. . كان رجلاً بسيطاً، تطوع منذ حرب أكتوبر صبياً بالجيش، وترقى حتى أصبح ملازم أول شرف.. عمل بكثير من الأماكن.. كان - رحمه الله - درامياً في معتقداته.. يعيش حالة الحرب في جميع أوقاته، حتى وإن أسندت إليه أعمال كتابية بكتيبته.

ولا تمر ساعة من ساعات إجازته التي يخطفها ليرانا وأنا وأخوتي، ثم يتوجه لزيارة قبر أمي - رحمها الله - هي الأخرى؛ لتفيض عندها دموعه، ويقول جملته المعتادة لها: اللهم تقبل ثواب قراءة الفاتحة على من أوسدتها الثرى بقلب راضٍ ونفس مطمئنة.. ثم زيارة شقيقتي الكبرى ببيت زوجها.

طقوس في محراب أسرتنا يقيمها؛ ليصل بها الرحم، ويحافظ على ترابطنا، وتنتهي الإجازة، ليرتدي بدلته العسكرية، ويشد قوامه أمام المرأة، وينظر إلى نفسه بعزة نفس، وينادي علي أو علي من يمر بجواره ويقول: "إن فاتك الميري.. اتمرغ في ترابه؛ يمكن يخليك راجل"، ثم يقص علي روايةً من روايات الحرب.

يسمعي ذات الشكوى في كل حديث عن الشباب والتغيير الذي اجتاح أفكارهم، والتسيب والانحراف الذي تَفَشَّى في نخاع الوطن، يخشى على الوطن أكثر من خشيته علينا، بل أحياناً يخشى- علينا - بل منا - لخشيته على الوطن.

وكلما استدرجنا ليسمعنا ذات الشكوى؛ لا نجيب إلا بمقولة واحدة: "الزمن عايز كدة"؛ فيغضب ويجيينا: "لا حرج على الزمن؛ فلا دخل له بما نؤمن وما نفعل، نحن تتمايل بأوطاننا كما تتمايل الراقصات، المهم أن نجعلها تتمايل بفن؛ حتى يستمتع جمهورها الذي أغدق أمواله من أجل أن تتمايل!"!

فتباً للجمهور، وتباً لأمواله، وتباً للجميع؛ فحينما نطلب آراء الراقصات في شؤوننا ونترك المثقفين والعلماء؛ فلا ننتظر يوماً أن تستقيم بيوتنا ولا أن تستقيم نفوسنا، وكما نجعل الأوطان تتمايل؛ سيتمايل معها كل شيء، وسينحرف عن وضعه الطبيعي، وستضارب الاتجاهات، وستزيد الاهتزازات مع التصفيق الخداع؛ ففي الرقص والعهر لا مجال لخشوع الصلوات.

لا آبه بمعتقداته حينها؛ فلا يعينني في ذلك الوقت سوى مراهقتي الخفية الخجولة ومتطلباتها.

وأر اد الله لي أن التحق بكلية الشرطة، وحين قُبلت هنأت البلدة كلها والدي، وامتلأ البيت بصناديق البيسي- والكوكاكولا، وكأنني فزت بجائزة نوبل!

مساكين هؤلاء القرويون أمثالي؛ يحسنون الظن بالأشياء الخطأ، حتى بكليتي التي - إن استغنيت عما فقدته فيها من كرامة، وما تصبب من جيني من عرق بطوابيرها من موانع ومشاة واشتباك وضاحية، وقيدتني به من حكم نفس على نفس وما خلفته في - اغتصبت وانتهكت حرمتها حينما انتهكوا عذرية الأطفال في قلبي، واستباححت أربع سنوات من شبابي، وتخرجت فيها، والتحقت بالعمل بالقاهرة، ووزعنا على الأقسام.

وانتشلتنني أضواء المدينة، وسرقت عاداتي وأعرافي وقيمي، فما أحلى السرقات في عمري! فصرت لا أعرف في يومي سوى العمل، ثم البحث عن ركن بأحد المقاهي يللم غربي، أو أبحث في كل أنثى أراها وكأنها معشوقتي، ولا أقدم خطوة واحدة، بل أهول بعد تضخم أحلامي كما تهرب الأبقار من الأسود...

فروتين الأيام يصيبني باليأس، وقلة راتبي تقيد بطني بألف حزام وحزام.. فكيف بأحلامي بسيارة أو زوجة أو شقة أو حتى بملبس.. بعيداً عما كنت أبتاعه من الأسواق الشعبية.

أحلام وأحلام، ولكن رزقني الله بالرضا، والذي كان يجعلني أتلفت إلى من حولي لأشعر بما فيه من نعمة. . حقاً لم أكن فاضلاً، إنما كانت الفضيلة بداخلي تعبت بي؛ فلا تجعلني أسير خلف كل ضوء أحمر كأنه متعة، إنما هو بالنسبة لي إشارة مرور، ومن البداية تدور الدوائر.

وكلام والدي - رحمه الله - كان بمثابة مرآة أنظر إليها لأمن من خلفي، وأرى الماضي وما قطعته من طريق لأحدد واجهتي،

ورضيت بالأقدار حكماً، فبنيت منزلاً بسيطاً، وتزوجت زواجاً بسيطاً، وعشت حياةً بسيطةً، لم أكن بسيطاً يوماً، إنما هو حارس الأوضاع الذي سلط سكين الكفاف على رقبتني؛ فأرغمني على الرضا، وعلمني أن من لا يملك لا يتمنى، ومن يتمنى لا يحقق، ومن يحقق فهو في الأصل يملك.

ولا أدري. . أكان رضي قهراً أم حكماً؟ أم تماشياً مع تلك الفترة؟ ولفترات أخرى مذاهب أخرى في حياتي، وكل مراحل حياتي مرت دون أن أدري.

حافلة عمري تسير وأنا - كأني راكب - أجلس على مقاعد أيامها. . فتقلُّ أشخاصاً، وبحسب أرقام مقاعدهم يتحدد قربهم مني. . وتمر محطات لا أحسب لها بالاً.. وينزل بعضهم لتقل آخرين.. وأفتقد من عرفتهم وألفتهم في رحلتي؛ لينسيني فقدانهم هؤلاء الآخرين الذين جلسوا بأماكنهم وعلى مقاعدهم.. ولا يصاحبني من بداية الرحلة إلى نهايتها سوى قائد الحافلة، وهو القدر.. هو من يتحكم بأوقات وطقوس وركاب الرحلة.

المهم أنني أوصلتها إلى باب بيتها، وتلفتت مرتابةً، وألقت علينا نظرةً عابرةً بطرف عينها، وانصرفت، ولم يبق لي سوى تكبد المزيد من الخسائر وظلام الشوارع الذي أعاد في ظلام سجن قوات الأمن وما أحلم به من حرية.

محزن أن تعيش كل حلم في صومعة. . مخزٍ أن تهول بحياتك من أجل أحلام تهرب من بين يديك كما يهرب الماء من بين أصابعك.

عدت أنا وصديقي رامي وكلانا يتحاكى عن فتيات وفتيات، وأنا أجاريه في الحديث ولا أملك من الأمر شيئاً سوى أن أضمن ما يقلني إلى وسادتي لأعيد أحلامي عليها، وأرتب حلقاتها وكأني ما بحثت عنها إلا لأروي لوسادتي بعض الأحلام بعد أن سئمت الواقع مخيب الآمال ومؤنث الرجال.

هلمي أيتها الوسادة؛ لأقرأ عليك بعض تراويل أحلامي الجديدة، وأعزف لك بعض أنغامي المبهجة، لكنها ليست كما الماضي.. آه لو جعل الله لك عينين؛ لأريتك ملهمة الأحلام ومنبع الآمال وناسجة الخيال.

آه أيتها الوسادة. كم أعشقتك! وكم أتمنى أن أضيف إلينا صديقاً ثالثاً؛ لأحملك إلى التقاعد، ونجدد دماً جديداً!

أما رامي. كنا قد جمعنا سجن قوات الأمن، ولم أعرفه مسبقاً؛ فقد جمعتنا قضبان نتواري خلفها عما اتهمنا به وصدقه الناس، أحياناً يكون السجن نعمَةً، أحياناً يكون السجن حارساً على أذنك فلا تسمع ما يقوله الناس عنك، وجدرانه واقيةً لخصاصات أعينهم الشامتة التي تلاحقك كما تلاحق أعين الرجال شيئاً تعرى من جسد امرأة.

تبتغي الحرية والفرار من بين قضبان السجون الحديدية وأنت تعلم أنك ستظل حبيس قضبان ظنون الناس.

السجن عالم لا يختلف عن عالمنا كثيراً، تنفذ فيه كل قوانين الطبيعة، البقاء للأقوى، والقوي سيد، والضعيف بهلول لا يملك من

أمره إلا التأمل والضحك، والكل يظن أنه مظلوم فيدعي أنه قد ظلم من أي أحد، من الضابط الذي ألقى القبض عليه، من النيابة، من القاضي، فإن لم يجد مبرراً فمن السجن.

هو عالم لترويض أسود النفوس، ومعسكر لتقوية ضعاف الهمم، ومركز معتمد لصقل الخبرة لذوي الإجرام.

تعلمت فيه أنه مهما كانت الظروف سيئاً ومهما ساءت الأحوال فهناك سر خفي. وهو أن صك السعادة لا يمنح إلا لحامل ورقة اليانصيب المدون بها: "رضيت بما قُسم لي".

الرضا هو العصا السحرية التي نشير بها إلى كل الأفعال والأشياء؛ فتضيء من جم سعادتها.

نتهافت صباحاً على مَنْ مَنَّا يحمل قاذورات العنبر التي خلفناها ليخرج ويلقيها في صندوق القمامة، خطوات تبعد بين باب السجن والصندوق، بضع خطوات هي بمثابة قرص مخدر ينهي كل خنجر يأس بين أضلعنا، ويحرر كل أمل حبيس فينا، خطوات أشعة الشمس فيها تصيبنا بالدوار وتخدر كل آلام الظلام.

أشعة الشمس التي كنا نتواري عنها بظلام المكاتب وستائرنا، وظلال السيارات وزجاجها الملون، ونظاراتنا الشمسية القائمة، والآن.. نتهافت عليها للحظات.

بضع ثوان نستنشق معها نسيم الحرية وعبق الحياة؛ فنتحول معه رائحة مهملاتنا وقاذوراتنا التي خلفناها في الظلام الذي انتهجناه

قبل دخولنا السجن إلى عطر ذي يوقظ كل ما ألفتها يوماً ولم نشعر به.

خطوات بسيطة، وحاجز ما بين حياة وحياة، جدار ما بين الظلام والنور، سلك شائك ما بين السجن والحرية.

رائحة الكتب التي أقرأها تذكرني بطفولتي، ونسيم الصباح وأشعة الشمس تذكرني بشبابي، وظلام السجن ينبهني لرجولتي التي انتهكت حينما ساد الظلام، ينبهني لأيام عمري التي انسابت من بين أصابع القدر لألحظها كعقارب ساعة لا جديد فيها سوى أنها تمر بذات الخطوط والعلامات كل ساعة في كل يوم أربعاً وعشرين مرةً.

وأنا على وسادتي في منتصف تلك العقارب أديرها وأدفعها بكل أمل حبيس دفين في، أما قلبي.. فليس به سوى دقات تدل على أنني جسد، وأني لا زلت على قيد الحياة.

هل ذلك يـحتاج ثورة؟ وعلام أثور وأنا لا أملك سواك أيتها الوسادة في ذاك المكان الذي يسوقك إليه سرداب النساء.. الذي يقودك للهلاك.. سواء سرت فيه أم لا؟ فكل مرحلة لها أشباحها التي تطاردك، أنا ثالثهم، أما هم.. فليروا هم دوائرهم، تكفيني دائرتي لأظل حبيسها.

الهلوسة الثالثة

هناك في ركن العنبر بذات السجن كانت جلسة تعارفنا على دائرة كل منا، نفتش الأرض على ضوء خافت يتسلل من بين حنايا النافذة، مطل علينا من أعمدة الإنارة التي كاد يحجبها دخان سجائرنا وهو يتراقص على أضوائنا الخافتة.

كلاهما روى روايته، وكيف ساقته أقداره إلى هنا.. إلى سجن الجسد، أما الروح. فلم تكن حبيسة الجدران يوماً.. هي طليقة تحلق كل ليلة بعيداً، تداعب كل أحلام السماء، وتطاردها كل كوابيس الأرض.

تنهد سمير وحكى قائلاً:

هلاك كل امرئ عند الوسادة يا عزيزي، فقد كنت أعمل أمين شرطة بلوكامين مباحث، سرت خلف الطموح كما سار الجميع، وضعت خطاي على أثر أقدام أقاربي الضباط العاملين بوزارة الداخلية، أنهيت معهد أمناء الشرطة، وتزوجت مبكراً على خطى أقاربي أيضاً.

ويا لها من حياة يعم عليها الاستقرار، وتنهال عليها سكبنة الزوجية، وتتوج بتاج الأبوة، وتنصع بجواهر الأطفال، ولكنها دائرة كما اتفقنا.. نقطة البداية هي نقطة النهاية وسبب لها؛ فلولا البدايات ما كان هناك نهايات.

غيرة زوجتي من رؤية أقاربي الضباط وهم يتقلدون المناصب ويحيطهم الناس بالاحترام والتقرب والود الاجتماعي.

ساقتها غيرتها لتضع بأحلامها نقطة البداية وهي لا تعلم قانون الدوائر، لتنتب حلمًا كان في أن أحصل على ليسانس الحقوق لأصبح ضابطًا؛ فأكون ذخرًا لجواهري الصغار.

كان يكفيني راتبي.. قانعًا به.. ولم أستجب لشياطين الإنس من حولي؛ فاستحل أموال الناس الذين قد تسوقني طبائعهم لذلك، وجربت ذاك الطريق، فكنت كلما استجبت لوساوس الشيطان عدت لمنزلي على وعكة صحية لأحد من أفراد أسرتي؛ فأنفق أضعافها في علاجهم.

كانت هناك ابنتي الصغيرة رعدة.. تدفعني مع والدتها إلى أن أحلم بأن أكون ضابطًا، فتسألني: بابا.. هو أنت ضابط؟؟

أجيبها: لا، أنا بعده على طول.

فتقول: عسكري يعني؟

أرد بعصبية: لا، أنا أعلى منه.

وحوار طويل تنهيه بسؤال بسيط: إمتى هتبقى ضابط يعني؟

حاولت أن أحقق أحلامهم؛ فقد يئست من أحلامي التي لا تتحقق، وقد كان.. وأنفقت معظم راتبي على الدراسة؛ حتى حصلت على ليسانس الحقوق، وسعيت واجتهدت؛ حتى التحقت

بأكاديمية الشرطة، وتخرجت فيها ضابطاً، والتحقت بالعمل بإحدى أقسام الشرطة، ثم رئيساً لنقطة تابعة له في زمن نفشى فيه السرقة بعد الثورة، واستطعت الإيقاع بأكبر تشكيل عصاي لسرقة السيارات بالمديرية.

قاطعته صديقنا ضاحكاً: خلاص يا عم، عارفين إنك محصلتش، وإنك رجل المستحيل، ما كلنا كنا أبطال، وأدي آخرتها.

لم يجب؛ فقد كان يروي وهو متصلب وعيناه ثابتتان، وكأن شريط الزمان يترجم أمام عدسة إيلام الفاجعة، واستأنف قائلاً:
كل ما هنالك أنني كلما صحت، وودعت زوجتي وأبنائي ذاهباً لعملي. . لمعت أعينهم فرحاً بالنجوم على كتفي، وأرى ذلك في كل عمل كلفت به أو رأيت أنه من واجبي القيام به.

وكل حكايتي أنها أنشى استطاعت أن تجرني إليها؛ فلدي أحلام وأحلام، وأمام ألفة الوجوه، ولسعة الصقيع، وخدمة ليلية بإحدى الأكمنة ظهرت هي قادمة بسيارتها، فبطلتها الأولى كسرت واخرقت جميع الأكمنة الصانعة كردوناً أميناً حول قلبي.

وسألتها عن رخصة سيارتها، وأنا لا أبه حينها؛ فلا حاجة إلى سحب رخصتها؛ فقد سحبت هي فتيل قنبلة الحب الموقوتة؛ فتفجرت في صدري، وتبادلنا أطراف الحديث، أنا المتهم بالإعجاب، ولا إنكار سيعفيني، ولا منجى أمام جهاز كشف الكذب بعينها؛ فأعصاي مرتعشة، وأنفاسي مقبوضة.

لم تستطع أجفاني أن تعانق الوسادة حتى صباح اليوم التالي؛ فالارتباك أنساني أن أنقش بذاكرتي بيانات الرخصة، واستعلمت عن أرقام السيارة في اليوم التالي، وتتبعته، وعلمت أنها تعمل بالخارج، وتأتي من حين لآخر لتطمئن على والدها طريح الفراش.

وبدأت أنصب شبابي حولها، ولا أعلم أنها هي من تنصب شباكها حول عنقي، أفنعتني أنها الفريسة وأنا الصائد، والحقيقة أنني كنت الفريسة الكسحاء.

"إيبيه.. أنا عبيط فعلاً".

اخترعت ألف طريقة وطريقة لألقاها، وهي تعلم، وكلما أبصرتني تبسّمت دون أن تنتظر، لمحت دون أن تبوح، وأنا كالفريسة ألهث خلف مروضي وصائدي.

أيام وأيام وأنا أتوسد صورتها، ويعطر عبقها غرفتي الصغيرة، وأتجمل كلما نظرت لمرآتي خوفاً من أن ألقاها، وتبدلت سلوكياتي؛ فكنت أظنها تنظر إلي في كل أحوالي وأفعالي، حلمت وحلمت؛ حتى تحول حلمها إلى واقع يعيش بداخلي.

أظنه كان عشقاً؛ فالعشق كسكرات الموت.. لا يذوق مرارته إلا الميت الذي لا يعرف كيف يندرن منه.

غابت.. وعلمت أنها عادت للخارج، وتوسدت صورتها قرابة العام؛ حتى اعتدت أن ألقاها باليقظة التي تسبق نومي، فأفعل معها ما أريد؛ فلا سلطان على رأسي وهي على الوسادة.

وبإحدى أيام عملي.. شممت نسيم عبقها الذي ما غاب عن أنفي يوماً وأنا متكئ على مكتبي، وأبصرتها.. وتلعثمت أفكارى؛ فنسيت كل ترتيبياتي المراهقة التي كانت بأحلامي البائسة في غيابها.

تداعب الأرض أقدامها، وتخطو بهدوء، ويتكئ على ذراعها كهل، وهي تصعد معه سلم النقطة المواجه للنوباتجية، والذي تحول إلى سلم موسيقي من عزف أقدامها عليه.. قرع حذائها عليه يداعب دقات قلبي معه، وألقت السلام علينا...

أنا: وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته.

هي: لو سمحت يا فندم.. أنا والدي بيته اتسرق من حوالي شهر كدة.. ينفع نعمل محضر ولا خلاص كدة.

أنا: لا . ينفع طبعاً، بس هو إيه اللي اتسرق بالظبط؟

قاطعنا والدها: أنا يا باشا قاعد لوحدي، وكنت عاين فلوس في البيت عندي وبصرف منها على قد ما بعوز، ومن حوالي شهر كدة لقيتهم اختفوا، ودورت عليهم ملقتهمش، وافتكرت إن أنا عاينهم في مكان وناسيه، لحد لما بنتي جت وقلبنا عليهم البيت مش لاقينهم.

وسطرت المحضر دون لمحة من عيني؛ فأنا لا زلت متهمًا، واسترسلا في الأسئلة وأنا أجيب، وعينائي في الأوراق؛ خشية أن يفتضح أمري.. هل الشوق شيء محرم؟ أم أن الحب أصبح جريمة؟ ولماذا لا نملك الشجاعة لنبوح بأسرارنا؟

ولم لا نتهور لبضع دقائق يفتضح فيها أمرنا ثم نعود لوقارنا
وكياستنا وأحلامنا المحبوسة بفانوس نفوسنا السحري؟

الندم موجود في كل حياتنا، فلماذا نخشاه حينما تكون أنفسنا على
استعداد لتقبله؟ لماذا نغلف به كل أفعالنا ونخشاه في الحب؟

وانصرفا، وتجدد عبقها بأنفي، ونطقت السنة من حولي عنها؛ فقد
داعب جمالها أعينهم الخائنة، الغيرة في صدري، والحمية في جيبني
الذي تقطر عرفاً من هول حضرتها، حتى همس لي شيطانهم الأكبر
- كما أسميته - بأنه لا بد من إجراء معاينة للمنزل، وقد كان.

كل ما هنالك أنني تصنعت عدم مبالاتي بها وانشغالي بهاتفني، لكنه
عرض مغرٍ.. فرصة، وما أندر الفرص في الحب!

واتخذتها ذريعةً لأبصرها وألقاها، فلا أمر من لوعة الشوق، ولا
أقسى من لهفة العشق، ولا أوسع من جعبة الأحلام في صدري.

وتوجهت إلى منزلهم، ورافقني أحد أفراد النقطة، واستقبلتنا وكأنها
تعلم قدومنا، وأجرينا معاينةً، فلا كسر ولا شيء ينم عن سرقة،
وحصلت على رقم هاتفها حينما سألتني كيف ستعرف أننا توصلنا
للسارق، وأخبرتها أننا سنعلمها، وأعطيتها رقم هاتفني لتخبرني بأي
شكوك لديها، وانصرفت.

وفي المساء اتصلت بي بادئةً حديثها عن المحضر، ثم استدرجتني في
الحديث بأن ذكرتني بأنني كنت قد أوقفتها بأحد الأكمنة وسألتها
عن رخصة سيارتها، ومنذ ذاك الحين وهي تتذكرني وتعرفني، كنت

أسمع كلماتها وكانها أول مرة يدق أذني صوت أنثى، كل كلمة أرقبها ولها إيقاع على أوتار قلبي.

وحدثتني عن نفسها، وما هي إلا بضعة أيام حتى صارت صداقة بيننا واعتياد على الحديث سوياً كل مساء، ونزِع رداء الحرج بيننا، وكنت ألقاها كلما واتتني الفرصة لذلك.

واعدتت عليها؛ فالاعتياد يسوقنا للأشياء لتتملكنا وتعبث بنا وتعدو بعيداً عنا؛ لنعدو ونهرول خلفها.

تطورت العلاقة بيننا؛ حتى اعتدت أن ألقاها في أحلامي كل صباح، وفي واقعي كل مساء؛ فالعشق ينبت باكراً، والشوق يثمر في المساء.

حتى فاجأتني يوماً بقولها: أظن أنني تعلقت بك وبأفعالك، ولم يبهري يوماً رجل غيرك، سامحني إن فعلت معك ما اعتدت أن أفعله مع من كانوا قبلك ولم تنجح علاقتي معهم.. سنتباعد بعض الوقت؛ لأترك انبهاري وتعلقني بك؛ لأعرف حقيقة مشاعري تجاهك.

عزيزي.. غب عن جوارحي ثلاثة أيام فقط، فإن لم أبحث عنك؛ فإنك لم تكن حبيبي يوماً.

وودعتها قرابة منتصف الليل وأنا أتبسم وأتعجب، أنظر ألف مرة في هاتفي، أقرأ بعض رسائلها ولا جدوى.. أتفقدتها في كل مكان جلست به أو مرت عليه أو حدثتني عنه يوماً. وعادت إلي الهلاوس من جديد. . أتخيلها تحدثني وتتوسل إلي أن أنقذها من الشوق

الذي أنكه كبرياءها وعَبرَ معتقداتها وألهمها الصبر حتى حدثتني، هلاوس. . حتى أتتني رسالة في اليوم الثالث منها، حملها إلي أحد صبية القرية، تقول فيها:

عزيزي...

لقد ودعتك ولم أكن أعلم أن هناك آهات كالخناجر مغموسة بسموم القدر تغرس في صدورنا بعد كل وداع، مخطئ من يظن الصمت أفضل من الكلام دومًا، فلا مكان له مع من أحببت؛ فسيسوقك الصمت إلى أن تجلد نفسك كل مرة تتذكر فيها أنك لم تقل أحبك حين أتتك الفرصة لذلك. ولأن الحياة ما هي إلا فرص نغتنمها فتنقذنا وتحيينا، أو تفوتنا فتقتلنا وترديننا.

ولأنني أحبك..

كن لي وحدي، أحببني ولو نفاقًا، وأنا كالمجنونة سأصدق؛ لأنني افتقدت الحب بكل أنواعه في هذه الدنيا.. الغابة الكبرى التي نعيش فيها، وفي الغابات لا تخشى الذئاب إلا كل ضوء أضاء.. فكن الضوء لي في تلك الغابة الكبرى.. أرهب بك كل ذئب استحل لحمي، واستباح عراي، وأعدك بأنني في كل يوم سأقيم حربًا معك؛ لأنني أحبك. . وسأقاتل كل كلمات اللغة حينما تكون حزينًا لأواسيك، وسأطعن حرس الروتين والملل بخنجر التمرد لأجعلك سعيدًا، كل يوم ستدق طبول الحرب بيننا، وسنرى من سيظفر

بالآخر ويجعله أسيراً مكبلاً بقيود العشق.. مطاطئ الرأس لهزيمة
الحنين في موقعة الشوق.

وليكن الفراش أرضاً محايدةً بيننا، ولتبدأ الحرب ونحن عزل
حتى من ملابسنا التي قد تحجب سهام القبلات التي ستحجب هي
الأخرى الضوء في سماء غرفتنا الصغيرة.

لأني أحببتك...

أنتظرك وأنا أتوسد جمر الشوق إليك.. وأتمدد على أشواك لوعة
الهجران.

قفز صديقنا ليقاطعه مرةً أخرى قائلاً:
وروح و لا عملت فيها ابن ناس ومحترم.

أطفأ سيجارته التي نفذت بيده دون أن يشعر وقال:
ذهبت.. وذهبت.. وذهبت..... حتى صار ما بيننا أدعى للعشق
والشغف؛ فقد نسيت كل ما شيدته يوماً من منزل وأسرة وزوجة
ومكانة اجتماعية.

انسقت خلف شهواني، وآمنت بوهم الحب في صدري؛ فنقطة
ضعفنا هو الخوف من فقدان ما تعلقنا به وأنفقنا عليه أيامنا؛
لنصنع منه سنداً نتكى عليه كلما طاردنا شبح الوحدة وهاجمتنا
وحوش الرغبة.

وفي إحدى الأيام. . لَمَحَت لي بالزواج، بعد أن أقنعنتني أن هناك أشخاصًا يطاردونها ويطلبونها للزواج، وأن والدها - وهي تشفق عليه - حلمه أن يراها متزوجةً.

هي تعلم أنني متزوج، ولكنها استطاعت ببضع كلمات أن تقتل كل مخاوفي.. بعد أن تنهدت طويلاً ثم قالت:

لقد قرأت أكثر مما ينبغي من الروايات والقصص وحكايات الحب، كنت أبحث عنه ولا أعلم أن جميعها لا تفي بالشعور حين يأتيك ويتملكك، كنت أحلم بتلك اللحظة التي أتلفظ فيها بكلمة: "أحبك".. حلم مُميت أن يتحقق، لكنني اكتشفت أن كل تلك الروايات والحكايات والقصص لن تفي بما في قلبي، ولن تناهض ما وصلت إليه بفلسفة الشوق في قلبي البسيط.

أحبك لا تعني بالضرورة أنك لي.. إما تملكنا، لنقل حينها أنا "لك"؛ فافعل ما شئت بي وبأحلامي وبأشياءي التي ما عرفتها إلا من أجلك.

"أحبك" هي الراية البيضاء التي نرفعها وتسلم بكل أوامر محبوبك وتنصاع إليها، هي الكلمة التي تجندنا في جيوشه؛ فنصبح جواسيس على أنفسنا له؛ فنفضح كل الوسوس بصدورنا لتتعرى أمامه، ولم يعد هناك سر يخفى ولا خبر يذاع.

وتزوجتها بعقد عربي، واحتفظت به معها وأنا لا آبه؛ فليس لديّ ما أخشاه من زوجتي ما دامت سلمت لي نفسها.

في ذلك اليوم طلبت أن نحتفل كزوجين، وأقمنا حرباً أخرى في ذات ساحة المعركة التي ما إن تقاطرت فيها دماء الرذيلة حتى صارت أشباحنا تتصارع كل يوم دون أبواق تحذيرية ولا مقدمات.

وقبل أن نخلد للنوم طلبت مني أن أحرر لها محضراً بفقدتها لبطاقاتها الائتمانية، وأخبرتني أنها منهكة لا تقوى على الذهاب؛ فأمامها ساعات قليلة وستقلها طائرة بعيداً عن حروبنا الصغيرة لتبدأ الحرب الكبرى بالاشتياق في صدري.

شيء بسيط. . أن أحرر محضراً من أجل زوجتي وحببتي، وأن أوقع بدلاً منها؛ فلا مكان للخيانة بيننا، وحررت المحضر، وأحضرت لها صورة رسمية منه، وأوصلتها إلى المطار، وقبل الرحيل.. أعطتني بطاقة ائتمانية لم تفقدها لتجري تحويلات مالية عليها لي؛ لأبتاع لها أحد العقارات.

وتزايدت تلك التحويلات، وتزايد سحبي للمبالغ على فترات، وأنا أعطي النقود لوالدها كطلبها قرابة العام، حتى جاءني طلب حضور من النيابة، وذهبت ولا آبه؛ فقد يكون شيئاً مرتبطاً بالعمل.

فوجئت بأنها تقدمت بشكوى تدعي أنها حررت محضراً بالنقطة التي أعمل بها، وأنها تتهمني بأنني قد زورت ووقعت بدلاً منها، واستبدلت بالمحضر آخر لكويني قد اختلست بطاقتها الائتمانية، وأني أعرف الرقم السري لحكم علاقة سابقة بيننا.

كاميرات ماكينات السحب دليل على ما قالت، وتقرير أبحاث التزييف والتزوير دليل على توقيعي بدلاً منها، وكل ما قالته في نظر الكافة يقين.

الصدمة أنها كانت أخت أحد أفراد التشكيل العصايي وأرادت الانتقام له، وببلاهتي وجدت نفسي - خلف قضبان السجون، وفقدت كل ما حلمت به يوماً وكل من حلم بي أياماً.

وكانت تلك قصة أولنا.....

الهلوسة الرابعة

مرت الأيام في عملي بالمحامة التي تلقفتني يدها بعد أن لفظتني وزارة الداخلية، أفتش عن التميز فيها؛ فقد التحقت بمكتب محام بالنقض مشهور.

وبقيت سمعتي ملطخةً بألف سؤال وسؤال عند من يعرف أنني كنت ضابط شرطة؛ فيظن فيّ السوء ولا ألومه؛ فقد فعلها أصدقاؤى وزملاؤى من قبلهم.

مرت الأيام في تشابه غريب كتشابه الوجوه التي أفتش في ملامح كل منها عن وجهها، واختلطت الأصوات في كل زحام، وكأن صوتها واحد منهم، حتى اتصل بي صديقي حسن، وطلب مني أن أتفرغ للذهاب لمعرض الكتاب، وكانت هوايتي؛ فتوجهنا وأنا لا أعلم ما يخبئ القدر لي هناك وما خطط له صديقي....

ظللت أتصفح الكتب لأحدد أهداف شرائى أي كتاب، ومناسبة ذلك بقايا النقود التي في جيبي.. مؤلم أن يهب أهلنا حياتهم من أجل أن نتعلم القراءة والكتابة لتصبح عاراً عليك، ولا بد أن تدفع ثمننا

لقراءتك، وأن تعجز يدك عن الكتابة أفضل من أن تبتز ممن
علموك في مدارسهم... فيا ليتني كنت جاهلاً...

وأبصرتها بجواري تتحدث مع صديقي؛ فكلا منهما على معرفة
مسبقة بالآخر وأنا لا أدري.. يتبعها بسيارته حتى يوصلها لباب
بيتها ولا يخبرني، ولا أعلم ولم أسأل؛ فزحام المدينة وكثرة الوجوه
جعلني أستبعد كل ظن أن يعرف أحد أحدًا.. تسمرت وأنا لا أدري
ماذا أفعل، وتَحَكَّم في سلوك القروي الخجول؛ فنظرت إلى الأرض
وإلى الكتب وإلى المارة أبعد عيني بالقوة عنها.. أكرهها على العبث
بجميع الوجوه إلا وجهها الذي هو غايتي ومقصدي، حتى انتزعني
صوت صديقي من ارتبائي إلى مواجهتي بضعفي وانطوائيتي، ودار
الحديث بيننا....

حسن: إنت يا عم.. سلم...

أنا: تلفت بارتباك غريب كادت معه ضربات قلبي يسمعها الناس
من حولي، وتبسمت ابتساماً لن تخفي أنفاسي التي تسارعت،
وقلت: أهلاً وسهلاً.

حسن: دة مصطفى.. صاحبي.. محامي.. ودي سما.. كانت زميلتي
في الجامعة.

أنا: أهلاً وسهلاً.

هي: بيتها لي إحنا اتقابلنا قبل كدة.. صح؟

أنا: مش واخذ بالي والله.

حسن: لا.. متشغليش بالك.. أصل مصطفى عايش في عالم تاني.

هي: إزاي يعني؟!

حسن: أصل هو من كفر الشيخ، ولسة بيتدرب في مكتب محامي هنا جديد.

نظرت إليّ نظرةً وكأنها تعرفني من ألف عام.. كنت أتمني أن أمتلك جراتها وتخطيها حدود الخجل؛ لأخبرها بكل ما أخبرت الوسادة به يوماً، ثم قالت: في حد معاكوا تاني ولا لوحدكوا؟

حسن: لا لوحدنا.. إيه.. هنتوه؟ وأنت مين معاكي؟

هي: مفيش حد.. أنا قلت أعدي قبل ما أروح لصحاي.

وأثناء الحديث.. سافتهما خطواتهما للترجل بالمعرض، وأنا لا أملك قَدَمَيَّ حين تبعتهما، محاولين استقطابي في الحديث معهما، وأنا أتصعب عرفاً من الخجل الذي انتابني لأتطفل عليهما؛ فليست من شيمتي، وفهما هما ذلك.

تمكنا من استقطابي، وما أروعه من استقطاب! لا ينقصه إلا أن يختفي حسن.. لأخرج طاقاتي المكبوتة، ولأبسط أحلامي على أرض الواقع، وأزين بكلماتي رداء أنوثتها وجراتها.

ظللنا كذلك حتى انصرفت، ودعنا للتقابل في المساء إن أردنا ذلك..
عايرني حسن بتلعثمي وخجلي، وأثقلني بجميل هو فاعله أنه
أحضرها وأخبرها بكل ما كان وكل ما قلته عنها.. فيا للمصائب التي
تحل جملة.. فيا ليته ما أخبرني؛ فأنا أعلم أنه سيزداد حيائي، وأنا
أعلم أنها تعلم ما كنا قد فعلناه.....

ولاحاجة لي بالخرج حينها.. ففي المساء سوف تحل بركات القدر،
وتتساقط خطايا الزمن، وتتوهج مصابيح الأمل.. ستدق طبول
السعادة لرؤيتي لها مرتين في يوم واحد.

في المساء عندهم هو بعد منتصف الليل.. أما عند القرويين أمثالي
هو بعد العصر، ولا حاجة لنا بالساعات؛ فما هي إلا تذكرة
بالصلوات.. وتقابلنا وهناك صديقاتها وأصدقائها.. هناك رجال
غيري على طاولة تجمعنا سوياً، واحتسينا ما طلبناه وأنا أفكر ماذا
أملك لكي أقدمه لها؛ لتفضلني عنم أحاطوا بها، وكيف أقبل بعشق
امرأة تصرفاتها كنت أصفها بالأمس بالعهر؟!

وإن قبلت.. كيف لي باختلاق حوار بيننا وأنا لا علاقة لي بها؟

لا حاجة لي بالحاضرين؛ فمن تهمني هي التي استغلت انصراف من
بجواني لتزداد في جرأتها لتجلس بجواري.. واغتنمت الفرصة، ودار
الحديث بيننا:

أنا: هل تهتمين بالقراءة؟

هي: بل ال قراءة هي من تهتم بنا وترعانا؛ لتصنع من كل منا بطلاً
لرواية قد تكون قرأتها يوماً أو سيقروها غيرك يوماً ما، ولك ما
فعلته بنا القراءة وما تركته بعقولنا ورسخته، وما ألقته من خيالات
أخلاقية وفضائل كاملة وتحدثت عنها بضمير الغائب، هي من
نسجت ألياف عقولنا وذاكرتنا.. ولا أعرف. . أذكر فضلها عليّ؟ أم
الأحقها بالذم على ما فعلته بي وما رأيته على شيطان بحورها؟

واتخذت ذلك الموضوع مجالاً لأجعلها تتكلم؛ فقد استرسلت في
إجابتها، وتنهدت وكأنها أرادت أن تخبرني أنها تنتظري طويلاً
لتخبرني بما لم تخبر به أحدًا.. تنتظري لتتحدث عن نفسها وليس
عما قرأت، وتجرات.. وداعتها مماًزحاً:
إذن اهجري كتبك، واكتفي بما قرأت، وانظري للعالم وللأشياء كما
تمليه علينا الصحف والقنوات الفضائية... وسلمي زمام عقلك لمن
يدفع أكثر، لمن يمول أكثر ذلك الإعلام، أو تصفحي كل صباح
الصحف ومحطات التلفاز الرسمية، وانظري للدولة من مفهوم
المواطنة.

يا سيدتي.. اهجريها واخلقي أسبابك لهجرانها.. فكل كتاب من
الكتب الموجودة أمامك هو رؤية خاصة لمؤلفها، ولا دخل لنا
بالرؤى، وما لنا وتجارب الآخرين، فما يقص علينا وما نتصفحه لا
نتأكد من مصداقيته.

فما الذي يجعلنا نسلم أعناقنا لآخرين يوهموننا بأنهم سيضعون عقوداً عليها؛ فنفاجأ بجمال أفكارهم تطوق أعناقنا حتى تقتل أنفاس الحياة فينا، ونحارب من أجل أفكار آخرين ما حاربوا من أجلها، بل هم كالمرتزقة جنوا مكاسب أعمالهم وحصدوا تهليل أمثالنا لهم.....

فاجأتها بكلامي؛ فحاولت أن تدافع عن رأيها وهويتها القراءة، والحقيقة أنها ما حاولت إلا الدفاع عما أهدرته من عمر في القراءة، هكذا رأيت في عينيها، فقالت محاولة حبس أنفاسها:
أتدري أن كل كتاب هو كالزورق الذي صنعه كل كاتب وأبنى فيه أمواله وعمره، ثم أبحر به في بحر الحياة وجدَّف بذراعي العلم والتأمل وألقى بشباك ملكة الأدب؛ فأخرج بالشباك حظه من الرحلة؟؟ فإن كان محظوظاً أخرج درراً ولآلئ.. وإن جانبه الحظ أخرج بعض أحجار ورواسب ولا لوم عليه...

قلت: أعرف أنه لا لوم عليه، ولكن هناك بعض اللوم على بعض من أبحروا بزوارق صنعتها سياسات حكومات وأفكار جماعات ووضعت بشباكهم ما أرادوا، ولا مجال للصدفة والحظ فيه.
قالت: وما حاجتهم إليه إن كانوا هم من وضعوا بشباك فكره ما أرادوا؟

قلت: هم لم يغيروا في فكره شيئاً.. إنما وضعوا بشباكه ما أرادوا فقط، وحاجتهم إليه لا تختلف كثيراً عن حاجتنا للكوب وعسله حين نضع السم فيه...

قالت: نختلف كثيراً؛ فأنت لا تهوى القراءة ولا تدرك قيمتها.

قلت: لا، قد أحب القراءة أكثر منك، ولكننا نختلف في الغاية.. أنت تقرئين لتتعلمي من تجارب الآخرين؛ لخشيتك أن تجري بنفسك ما أقدموا عليه.. كمن يصفق للفائز دون محاولة أن يكون مثله، أو قد تستهويكي القراءة لمجرد إثقال فكرك وتأييد رأيك في الشيوعية التي أنتِ عليها.....

صحيح أن هناك من رسموا ملامح جعبتهم الزمنية بالكتابة، فدونوا كل تفصيلة بمداد أقلامهم، سواء أكانت مزخرفةً بدعم يد السلطة لها، أم مكسورةً لنبذهم إياها.. وكل منهم له وجهة نظره، وحتى نظرتة مستنبطة من داخله.. من ميوله.. من أهوائه.. من تجاربه الشخصية، فكم كذب التاريخ علينا! وكم هُدِّمَت بَيْعٌ وصوامع وصلوات من كذب بعضهم!

الحقيقة أن الكاتب هو موهوب يستطيع الرسم بالكلمات.. ينقش لوحه ألوانها أهواؤه، وسحرها موهبته، وقوته في عشاقها.. ولن أمد كاتباً من قوتي بأشياء لا أوّمن بها. . اقرأي أنتِ ما شئت، أما أنا.. فقراءتي لتتعري مزيد من الحقائق أمامي.. ليفتضح كل فعل ودوافعه، ولا دخل لي بالتعلم؛ فتجربة واحدة في ذلك العالم

كفيلة أن تخلق من الإنسان فيلسوفًا؛ فيدرك ما لا يدركه غيره، وفي الفلسفة.. لا مكان للنظريات، ولا مجال لتجارب الآخرين.

اقرأي أو انتظري تجربةً واحدةً فقط.. تجربة كفيلة بأن تجعلكي تكتبين مائة كتاب بنظرة فلسفية، ولن يتقبلها أحد.. أتدرين لماذا؟ لأن غالب القراء كمن يسبح في الماء طالما قدماه ثابتتان على الأرض، وإن شعر بابتعادهما عنها - ولو لشبر واحد - قد يموت غريقًا من الخوف والقلق.....

أحاديث وأحاديث، وجدال لا نبتغي منه سوى أن يحتضن كل منا أفكاره التي اتخذها سيفًا مسلطًا يهشم به جدار الماضي ويغرسه في فريسة الحاضر، ويرتكن إليه بحذر من المستقبل، وما احتجنا إلا إلى احتضان بعضنا.. أن تتلاقى أعناقنا وتتلاحم أذرعنا....

أن نلتقي بعد أن يلقي كل منا الآخر أعزل متخليًا عن تلك السيوف ودروع الخوف من العادات والتقاليد والأعراف، وبعيدا عن ألسن الناس التي هي كالمجانيق بين أفواههم فلا تلقي إلا نيرانًا وأحجارًا.. حرب نبتغي أن تقام بيننا على أرض محايدة بعيدًا عن الأسلحة، لنكتفي بالخداع والمكر وهي الأقوى.

أما أنا.. فلا أملك إلا الاستسلام؛ فقد أقيت كل أسلحتي؛ لألقاها أعزل؛ فلم أعد أحكم السيطرة على حراس قلبي، ولم يعد هناك اتصال بيني وبين كتائب الجسد التي تتربح تلقف فريسته حتى تبدأ في توزيع الغنائم؛ فجسدها ما هو إلا غنائم حرب، سأخسر- فيها كل شيء.. حتى الوسادة.

الهلوسة الخامسة

وفي وسط جدالنا.. قاطعنا حسن قائلًا:

ايه.. سرحت منك يا ابن القاتل، مش كفاية كدة.. وانا شغل الصبح، ولا زي عادتك هتدخل تقول للقاضي معلش.. ظروف الطريق.. أصل أنا جاي من كفر الشيخ، ياللا يا ابن القاتل.. خرينا فمشي.

ثم ضحك ضحكةً خبيثةً، وبعينه يذكرني بعبدالفتاح.. ثالثنا؛ فقد كانت مقولته حينما حكى روايته قائلًا:

كان جدي - رحمه الله - كهلًا خفيف الظل، لا ينادي على أحد إلا بقوله: "تعالى يا ابن القاتل.. روح يا ابن القاتل".. منذ نعومة أظفري وأنا أسمعها منه، ويسمعها الناس ولا نبالي، ولم نعلم عنها شيئًا سوى أننا اعتدنا عليها وأحببناها منه.

كان رجلًا فقيرًا جدًّا، إلا أنه دأب على قراءة الجرائد كل صباح، وينفق عليها كل أمواله، وحينما شددت ظهري وكبرت سألته عنها، قال:

يا ولدي كلنا قتلة، إن لم نقتل أجساداً نقتل أرواح الآخرين، وإن لم نفعّل نقتل أنفسنا، فنحبس كل أمل وكل حلم فينا، ونذبحه بسكين العادات والتقاليد والقييل والقال.

كل الكلام الطيب والخصال الطيبة عندنا موءودة ومقتولة.. ولا حرج؛ فقد أنجب أبو الناس سيدنا آدم ولدين قُتِلَ الذي قَدَّمَ قرباناً طيباً، وعاش قاتله ونحن سلالته.. فلا حرج.

جدك الأكبر قاتل، أما المقتول.. فلا حاجة له بالعيش عليها، الأصل فينا.. القتل إلا ما استثناه الله واجتباها وهداه.. فكُن على حذر من القتلة أولاد أبيك الأكبر، سامحني الله يا ولدي على كلامي، ولكنها الحقيقة.

قاطعته بقولي: يا عم احك.. ما لنا إحنا ومال جدك، ومال جدك بحكايتك.

قال: حكايتي أبسط من أن تحكي؛ فقد كانت حياتي عصبية بالنسبة لي قبل العمل؛ فوفاة والدي وأنا صغير، وأمّي طريحة فراش المرض لم يشفعا لي عند إخوتي الكبار؛ فكنت أصغرهم.. كما يقولون (آخر العنقود).

أعيش وحدي.. أحلم بتجمعنا كباقي الإخوة، ولا يوجد طريق إلا
وسلكته لتحقيق ذلك الحلم الصغير؛ فقد تحكمت في إخوتي الجفاء،
وغشيتهم المادية؛ فلهثوا خلفها ولم أبالي.

لا سبيل أمامي سوى أن أتحمّل كل استغنائهم عني بتوددي إليهم،
وأن أستبدل كل بعدهم عني بتقريي إليهم.

لم يجمعنا سوى مرض والدي.. فيشتد وصالنا كلما اشتد مرضها،
وإن كنت رفقتها فلا مجال لهم بالسؤال عنها، يكفيهم أنني موجود
وبحوزتي هاتفي لأستقبل مكالماتهم للاطمئنان عليها فقط.

الكل يتذرع بانشغاله وظروفه الطارئة التي لا تنفد، وأنا سعيد
بأنني من تبقى لأمي، وكأنني أقول لها: انظري يا أماه.. لم ينجب
رحمك سواي.

ومن جانب آخر كانت السعادة عارمةً بمكالماتهم وسط أصدقائي
الذين ما إن أفرغ من تلك المكالمات حتى أبصر- الغيرة في أعينهم،
لينطق لسان حال أحدهم بقوله: "أحسن حاجة فيكوا إن انتوا
بتحبوا بعض.. مش زي اخواتنا!"

والحقيقة أن إحدى أمنياتي المستحيلة كانت هي وجود أخت لي..
أراها بأحلامي، أتصورها بجواري، أتحمس رائحتها كلما سكبت

دموع جفاء إخوتي على أنفي، أبصرها بجواري كلما أعجب بأنثى،
أتخيلها معي دائماً، أحكي لها كل شيء.

وحيداً رغم كثرتنا، حزيناً رغم وفرة أموال والدي التي تركها، كل ما
هنالك أن أبي قبل وفاته كان يقول لهم: "ابن الصغير يتيم يا ولاد..
انتوا كبرتوا واشتغلتموا وجوزتكموا، مش فاضل غير عبد الفتاح،
الظاهر كدة زي ما سميته على اسم أبويا وكان يتيم، هو كمان
هيكون يتيم".

لم أبصر - حينما كان يروي حكايته - سوى طفل ملائكي حزين، بعد
أن كنا نسمع صوته الأجلش ويخشاه الجميع، فلم ينكسر - يوماً
أماننا، ولم نسمع له أنين ولا شكوى، سوى ضحكات يخبرنا بها فقط
أنه بخير.

يهمس وهو يحكي، ويخبرك صوته المتهدج الحزين بأنه ما بين
همسات وهمسات تكمن آهات تختبئ خلف الوجوه.. يحاول أن
يتسلق تلك الجدران ليفر بروحه من سجن الجسد، ويعجز أمام
رهبة الحرية والواقع والعبثية.

واستكمل حديثه قائلاً:

هكذا كانت بدايتي.. ومن البدايات تحسم النهايات، وتخرجت في
الكلية، والتحققت بالأمن المركزي، وسارت حياتي بإخوتي الضباط
الذين استعصت عنهم بما افتقدته في إخوتي، وتمردت عليهم؛ فلا

شيء يبقيني على حبههم سوى أبي وأمي، أما أنا. فلم أر شيئاً يشفع لهم عندي، وأصبح جفائي كجفائهم، وبعدي كبعدهم.

وفي ليلة كنت متجها إلى منزلي في المساء، حيث كنت لا أطيل غيابي عن منزلي لقلقي على والدتي، وللانفلات الأمني الذي ساد؛ فأوجس في نفوس الجميع خيفةً من المجهول الذي لم يعلمه أحد.

شاءت الأقدار أن أبصر عند خروجي من إحدى محلات البقالة سيارةً بها ثلاثة ملثمين حاملين جهراً أسلحةً آليّةً، ورفقتهم فتاة تصرخ وتستغيث، فتسمرت، وقبضت أنفاسي، ومروا على الجميع، ولم يبالي أحد بسوى أنه بخير، أما الفتاة.. فلها رب يحميها.

استقللت سيارتي، وملامح وجهها لم تفارق مخيلتي، وصراخها يتردد بأذني، وضميري يحاسبني، وأبرر: ماذا سأفعل وأنا لا أحمل إلا مسدسي الميري؟ وماذا يفعل أمام الأسلحة الآلية؟

ولا زلت أفكر وأفكر، حتى انتشلني باعث خفي كأنها أختي، كأنها شقيقتي التي طالما حلمت بها، وبطولاتي بأحلامي وأنا أحميها تجسدت إلى واقع أهرب منه، الجبن قد يفقدنا فرص تحقيق أحلامنا، أعرف أنه تهور، فما بين الشجاعة والجبن يكمن التهور.

سرت كمجنون أبحث بين الشوارع عنهم.. أسلك كل التقاطعات وأنا أتحسس، ولا أجنبي إلا لهاث كلاب الشوارع ونباحهم خلفي.

عدت خائب الأمل بطريق منزلي، وخط القدر همداده الأسود نقطة سوداء؛ فقد أبصرت السيارة التي كانت تقلهم أمامي أسفل جدران مدرسة مظلمة وسط الحقول، ومصابيح السيارة مضاءة ناحيتي.

الليل الحالك في ذاك المكان أخرج كل شجاعة جمعتها من على طرقات الحكايات والأفلام، أتلصص وأنا متوجه ناحيتها، أود أن أخرج محرك السيارة حتى لا يخبر أحدهم أنني هنا، وتحسست خطأ سيارتي، حتى توقفت عندها، وحينها. وجدت السيارة خالية.

انتظرت هنيهة لأستغيث بأحد يمر عليّ، ولم أر سوى ترعة وأشجار كأشباح عن يميني، وعن يساري حافة الهاوية التي سألقي بنفسي- فيها.

نقيق الضفادع كأصوات طلقات نحو صدري، ونعيق البوم كخناجر تمزق أعصابي، وصوت صراخير الحقل كجرس إنذار لنهايتي؛ فاتخذت قراري بالرحيل والعودة لمنزلي؛ فلم أجد أحدًا، وهذا كاف لإرضاء ضميري حينما يحاسبني وأنا على وسادتي، وترجلت من سيارتي واتجهت نحو السيارة حاملًا سلاحي لتأكيد ذات المعنى لنفسي، وأني فعلت ما يجب أن يفعل.

عدت إلى سيارتي، وقبل أن أدير محركها - والذي أطفأته لكي لا يشعر بي أحد - سمعت صراخها؛ فنسيت كل مخاوفي، هرولت أتسلق جدار المدرسة إلى الداخل، هناك السلام تكسوها أكياس

القمامة المبعثرة، وظلام دامس سوى فصل تتسلل أشعة الضوء منه إلى طريقة الدور العلوي.

مع الرياح.. تطايرت الأوراق والأكياس، وتطايرت أنا الآخر، لا أدعي الشجاعة.. كل ما هنالك أنني حاولت إنقاذ أنثى لا أعرفها، بحسابات لم أكن أدركها، في حدث لا مجال فيه لتوقع النتائج.

كل احتكاك لحذائي بدرجات السلم هو احتكاك بأعصابي التي تلفت.. صرخات واستغاثات، أقترب منهم.. باب الفصل مغلق، فجتوت على ركبتي حتى وصلت إلى الشباك المطل على الطريقة.

اثنان بالداخل.. وهي منزوعة الملابس ملقاة على مرتبة ممزقة قديمة تفتش الأرض، ويغتصبها أحدهم وهو مجرد من ملابسه عند السبورة، والآخر في أحد الأركان يصنع الشاي بسخان كهربائي.

لحظات واغتنمت الفرصة، ودفعت الباب بهدوء؛ فأبصراني، ومن الارتباك.. أطلقت رصاصاتي نحوهم، وذلك آخر ما أتذكره؛ فقدت الوعي، ولم تفتح أجفاني إلا بالطوارئ بالمستشفى العام...

ومكثت فيها قرابة تسعة أيام.. علمت أنني قد أصبت بطلق ناري، وهناك أمين شرطة وعسكري أمام الباب.. أخبراني أنني تحت الحراسة لحين عرضي على النيابة!

لم أبال؛ فأنا البطل، ومخيلتي مملوءة بنظرات تلك الفتاة حينما تلقاني.. ستمناني كل ساعة؛ فأنا الشجاع الذي أنقذها من همجية الرعاع.

وبعد أن كنت أظن أنني بطل، صرت متهمًا بقتل الأبطال؛ لمجرد فقط أنهم ألقوا بجثمانيهما أمام قسم الشرطة، ولسوء الحظ.. كان ذاك المكان على مقربة منه.. احداث واحداث ورغم أنني لا اعمل به صرت متهما صرت قاتلا، هم حماة الفضيلة.. وأنا قاتل الشرف.. هم من ضحوا.. وأنا من خنت.

تعافيت من آلام الجسد، وظلت آلام الظلم في صدري، ولا أدري.. أغاب الحق في زمننا؟ أم أن الباطل والكذب هما سيدها هذه البلدة؟!

وانهالت الألسن بالسباب والتنديد، الكل يطالب بالقصاص مني، ولا حرج؛ فهم القتلة الذين حذرتني منهم جدي، ولعب الإعلام دور نصير الحق، واتهمني أهلهم بالقتل، وأنهما ضمن الثوار، هم شهداء الوطن.. وأنا قاتلهم!!

والجميع شهداء على الحق في النيابة، ولا أملك إلا بعض كلماتي التي لم ولن تنفي ما اتهمت به؛ لم يصدقني أحد، حتى أنا.. لم أعد أصدق نفسي، فهذا أنا يا صاحبي السجن، ولكنني لست يوسف، بل قاتل الشهداء من الثوار.

هكذا حياتي تسير، في كل أيام الليالي كانت الدمعة رفيقي.. نطل
سويًا من شرفات الذاكرة على أحداث الزمن ونحن نرتشف من
كأس العجز أمام انبهارنا ببطولة الأقدار المطلقة.

لا منجى من القدر سوى أن تنحني وتخلع قبعتك.. ولا سبيل
أمامك سوى أن تصفق لكل فاجعة، وكأنك كنت تنتظرها من مائة
عام.

ومع اليأس وطول الانتظار... وفقدان كل أمل.. ولد بداخلي حلم
لقيط... لا بد أمامك ولا سبيل سوى أن تحلم حلم حلمك الأخير..
أن تحلم بالمصيبة الكبرى...

أن تلتحف الثرى وتتوسده.. أن تحلم بالموت.. هو المصيبة الكبرى
التي تخلصك من كل المصائب الصغرى.. هو الكارثة الوحيدة التي
لا كارثة بعدها.

وانصرفت أنا وحسن، وودعناهم.. ليبدأ هو معي في الدروس
التحذيرية منها، وليخبرني أنه لا يعلم عنها شيئاً، ومن أين تأتي
بالنقود التي لا قيمة لها عندها، وإن كانت ثرية.. فلا طاقة لنا
بالأثرياء؛ فأنا متزوج!

وإننا.. وإنني.. وأنا لا آبه؛ فلا زلت القروي الساذج البسيط، حتى
اتفقت معها هاتفياً - قبل أن يحتضن كل منا وسادته - على

الذهاب لرحلة إلى الغردقة، ولطالما كانت حلمي، وتعاقت الأيام..
حتى كنا هناك؛ فلا مجال لأحلام وسادتي التي لا تتحقق معها.

في ذلك الوقت كانت قد أوشكت ملامح اليتيم في عيني أن توأد
وتندثر؛ فقد أهالت عليها أتربة السعادة المحملة على ظهور
العشق مغترفة بأيدي الأشواق التي لم أستطع معها إلا أن أبتسم..

لم تكن ابتسامه. بل سعادةً اجتاحت دهايز قلبي.. أجبرتني على
رسم أول ضحكة صافية صادقة على وجهي.. ليراها الناس، وتسجل
بسجلات الزمن بالتقاط المصور لنا صورةً حينها.....

كمن حاول طيلة حياته أن يرسم الماء ويحاول رسمه شفافاً، وهذا
مستحيل، ثم أمام يأسه يجد يده ترسمه بشفافيته دون دلالات
لونية أو مؤشرات حسية؛ لأنه حاول رسمه لنفسه وليس للناس.....

ممسكاً يدها ونحن في الهواء الطلق.. نعلو مساحات شاسعة من
ماء البحر، والتي طالما أرعبتني لدرجة أنني كنت أشعر أنه عالم
غريب لا مكان فيه للتوقعات.. المصائب والكوارث تحدث فقط..
ولا يوجد منجى.

كان بالنسبة لي مكاناً للفقدان والرحيل.. منذ أن كنا نودع أقاربنا
فيه وهم يحملون حقائبهم بحثاً عن المال، واختتمت عندما أبصرت

جث عبارة السلام والموت قد لوح حينها.. كأنه لم يعد هناك حياة....

قبضت على يدها بدلاً من أمسك بما أخبرنا به مرشدنا... قبضت بقوة... فهتفت بضحتها التي كادت أن تتجاوز كل قوى الطبيعة لتهلكني وترديني قتيلًا، إنها الطبيعة بذاتها وبكارتها وبراءتها، وأيضا بمكرها وغدرها....

هتفت: "آه يا جبان".

تظن أنني أخاف على نفسي من التحليق في الهواء أو السقوط بالماء، ولا تعرف أنني ما خشيت إلا أن أفقدها... خشيت نفسي من نفسي... أن ترحل مثلما رحلوا جميعًا، أخشى أن يكون مكان ضحكتنا هو مكان دمعتنا.. ووقت سعادتنا هو وقت تعاستنا.

أود أن أحتضنها حينها، ومنعني ما فُيدنا به من أحزمة، وددت أن أضمها، ولكن لا يكفي الضم.. أريد أن أحتويها بداخلي؛ فجزء منها قد سكن في.. أقام بداخلي.. سرى بدمائي، واستعمر جوانحي، وأقام مستوطنًا في كل شبر بجسدي.. وتعالَت أصوات المستوطنات بطلبه.

لا يكفي الضم حقًا، وطالما اشتكت هي من شدة ضمي ووصفتها بالقسوة، وهي لا تعلم مبتغاي.. وطالما تسمرت أمامها بارتباك لا أعلم بأي شيء أبدأ في احتضانها، وبأي كلام أخبرها مدى شوقي وعشقي لها.

تلك اللحظات التي تسمرت فيها كانت تنعنتني بأني متبلد
المشاعر، لا أتقن فنون العشق وأصول الرومانسية.. ووددت لو
أخبرها أن كل فعل مجهز ومعد ومتعارف عليه ما هو إلا بروتوكول
ونفاق.

ولا أصدق من كلام رجل لم تفهم من حديثه شيئاً سوى اهتزاز
أحباله الصوتية. . إما خجلاً، أو فرحاً، أو حزنًا، وصاحبه سرعة تنفس
واحمرار وجه.

أسأليني عن ذلك.. أخبرك أنني أبصرك بين الحين والآخر برؤية
أخرى.. برؤية تلك الاهتزازات لأحبال الصوتية التي عزف عليها
قلبي، واتخذ من رثتي بوقاً يوقظ به كل جنود جسدي التي ما
استراحت ولا استكانت إلا للعودة للبحث عنك.

فأحياناً نبحت عن حزن يحطم أضلعنا لنشعر بالراحة، والجسد
كفيل بإصلاح ما أتلّفه من ثورات عشق.

ثم عدنا إلى غرفة كل منا.. محملين بقارب الحب، وعلى جناحي
الشوق الدائم والحنين المتصل.. حتى فعلتها.. وقبلتها.

ها قد جمعنا سرير واحد، وهناك ضوء خافت في نهاية الغرفة،
يطل علينا من الشموع التي أعدتها وكأنها تعلم في أي وقت أرضخ
وأستسلم للعهر في نفسي....

وخت كل شيء.. تلك هي الخيانة الكبرى.. لزوجتي.. ولمبادئي..
ولعقائدي.. لديانتي.. لملذاتي، حتى إنها خيانة لوسادتي.

إنها تمرد على نفسي بنفسي، فأدعي العشق وأعلم أن هناك عشرات
الرجال تقطر جبينهم هنا على ذات المضجع، ووضعوا تلك الوسادة
خلف رأسها، ومئات الآهات الخادعة احتضنتها تلك الوسادة.

هي الشاهد على خيانتني وكل الخيانات قبلي، هي الذاكر لإله
العشق؛ فتنسينا الإله الواحد!

أعقاد ياسمين تتدلى على السرير، ولكنها صناعية لا رائحة فيها ولا
حياة، كمن كنت أضاجعها.. كانت تتجمل لدرجة أنها تجعلك
تستهيها دون حسابات.. هي العهر بعينه.. في ملابسها، وحديثها،
وغرفتها.. حتى وسادتها التي ألبستها غطاءً حريريًا أحمر.. تريد
هي الأخرى أن تتعري كلما وضعت كفي عليها لأكمل خياناتي.

العشرات قد أتوا إلى تلك البقعة المدنسة بكل ذل لشهوة وتصنع
بالحب.. كثيرون خانوا أنفسهم هنا قبل خيانة الوطن هناك.

وبعد أن أنهكت قوانا واستلقينا، قالت:

كم تتقاضى بمكتب الحمامة الذي تعمل به؟

قلت: يعني.. مرتب كويس الحمد لله.

قالت: كام يعني؟؟ مش هحسدك والله.

قلت: حوالي ثلاثة آلاف، وممكن تزيد ساعات.

قالت: ياااه، ولكنك تمتلك عقلاً وشخصيةً قد تجني لك أكثر من ذلك!

- الحمد لله، لا أؤمن من الستر.. لقد جربت الفقر لأمثالي، رأيت الفقر بعد الغني، وذقت الحاجة والعوز بعد الاستغناء.

- اترك عملك واعمل معي؛ فأنت لم تسألني يوماً عنه.

قلت: أردت ألا أسالك عن شيء حتى تحدثني عنه.

قالت: أنا أعمل بمنظمة حقوقية، وأتقاضى سبعة آلاف كأجر ثابت بخلاف المكافآت، وكل ما هنالك أنني أبحث عن شيء يَنْتَقَدُ أو فساد، وأرسل إليهم تقريراً بذلك.

- وهل تلك المنظمة حكومية؟

ضحكت حتى القهقهة، وقالت: لا.. دولية.

- وما الأوراق المطلوبة؟

قالت: لا يوجد أوراق سوى أنني سأرشحك لتنضم كعضو معنا، وما عليك سوى أن تنادي بالليبرالية وتؤمن بالشيوعية، وتتخذ من كارل ماركس قدوةً، وتصنع منه في عيون من تعرفهم زعيماً، وكل ذلك بالنسبة إليك سهل إن وافقتني.. لا استيقاظ مبكر، ولا التزامات، بل ندوات ومؤتمرات سنكافأ عليها أيضاً، فَكَّر في الأمر.. أنا سأغادر في الصباح.. لقد أمضيت أجمل أيام حياتي معك؛ فلدي التزامات عائلية هناك.. بحبك.

كانت أول مرة تتلفظها، ولكنها ليست كما حلمت بها يوماً، إنها تقولها وكأنها تخبرني أنها تملكتنني وصرت أسيراً لها، وللأسف.. إنها الحقيقة، وثار الجدل حتى الصباح.

ليس هناك ما هو أصعب على الإنسان من الغربة.. أن تعيش في جسد ليس جسديك . وبين جدران مسكن لم تألفه يوماً.. وبين كثران أناس ليسوا ناسك.. وفي مدينة ليست مدينتك.. في وطن ليس وطنك.. والأصعب من ذلك كله.. أن تستعمر قلباً ليس قلبك.

كل أحلامك ليست لك.. حتى ذكرياتك ليست ذكرياتك.. عالمك الحقيقي بداخلك أنت. لا تصدق كل ما قالوه يوماً أننا نعيش بعالم واحد.. مخطئ من يصدق ذلك.. شعاراتهم ليست شعاراتك.. وقيمتهم ليست قيمك.

العالم الحقيقي يسكن بداخل كل منا.. والكل له عالمه الخاص به.. لا تعلم من عالمك سوى لحظات ما قبل النوم التي تضع فيها رأسك على وسادتك لتطمئن عليها من خلف جدار الواقع.. قفزات بالخيال كقفزات من خلف الجدران. تحاول فيها أن تبصر شيئاً فلا تبصر.

تلك اللحظات تنتهك فيها كل حدود الزمن والمعقول والمنطق.. تحلق بعيداً إلى عالمك لتراه من بلورته السحرية وهي نفسك، وتديره بعصا الساحر وهي قلبك...

من منا لم يتوارث عاداته.. من منا لم يتوارث شخصيته.. من منا لم تقده ظروفه وبيئته لما هو عليه. من منا هو قلبه حقاً.. من منا يرضى رضاء كاملاً عن أفعاله وتصرفاته.. من منا ليس له عالمه

الخاص.. ومن منا يستطيع أن يحدد معاملته وحدوده.. وهل هناك ارتباط بين ذلك العالم والعالم المفروض علينا؟

نفوسنا تحمل عالمًا آخر لا نقوى على معرفة حقيقته والإيمان به.. عالم حدوده لا منتهى لها، وأحلامه لا درب يقودك إليها.. عالم نفوسنا كهوة بلا قاع بداخلنا.. نلقي بها كل أحلامنا.. حتى لا يعثر عليها أحدهم ممن ساقونا وأكروهنا لنتمنى أمانهم ونحلم أحلامهم، ونناقق كنفاقهم ونكذب لنبهرهم، ونتجمل ليتعلقوا بنا، وما أردناهم وما أرادونا.

ما السر في سعادتي مع شخص وبغضتي.. لآخر؟ وهل أفعاله هي التي وضعت على رف إما المحبوبين أو المبعوضين إلى قلبي؟ وهل أفعاله هي التي رتبت له تلك المكانة؟ أم أنها لم تتوافق مع نفسي؟ وهل أرضت نفوس آخرين فتعلقوا بهم وأحبوهم؟ ممكن.. فلا يوجد في العالم وحيد إلا من أراد ذلك؟ حتى القتلة لهم محبوبهم ومريدوهم...

وهل أي منّا يجرؤ على أن يبوح بأحلامه؟ هل نخجل منها؟ وما الخجل؟ وممن نخجل؟ وممن لا نخجل؟ وما المخجل في أحلامنا؟ العيب.. الممنوع.. الواجب؟ ومن وضع ذلك.. هم؟ من هم؟؟ هم أيضًا العهر في عقر نفوسهم.. والخطيئة مجبولون عليها.. والجهل في أحلامهم مشاع...

لماذا أستمتع بالموسيقى؟ ولم لحن يجذبني دون غيره؟ وما الموسيقى؟ وما الذي تحركه فينا؟ وما الذي نشعر به؟ وهل

نستطيع أن نصفه بالكتابة بلغتنا؟ ولماذا ولماذا وألف لماذا لدي،
وبجعبتي ألف سؤال.

كل ما يملأ يومنا هو نفاق وأفعال اعتدنا عليها لإرضاء الآخرين،
وأخرى اضطررنا إليها لنوائم الواقع.. والكل يكذب وينافق ويقتل
تحت سياسة البقاء.

ما أحوجني إلى الوسادة! ما أحوجني إلى أن أغوص برأسي فيها
لأصل إلى أعماق الماضي بداخلي، وأجذب كنزي الذي خبأته
بصندوق الطفولة لأبعثر كل ما حوي من لآلى ودرر! براءة
الأطفال، وأحلامي البسيطة، وانتهاي لكل مألوف.. ولا أجد جواباً
لأسئلة كثيرة؛ فأبحث عن أخرى...

سؤال واحد أبتغي إجابةً عليه...

هل أحبها؟

سؤال قد لخص كل كوارثي وحسناتي وسيئاتي.. ملمم أحلامي الصغرى
وآمالي الكبرى وكل مبادئ وعقائدي. اليوم أقف متصلباً ومتسماً
أمامه، لا أجد الرد.. أتدري لماذا؟ هي الغربة يا عزيزي.. هي الغربة
بعينها يا صديقي...

لا أقوى على الإجابة إلا على وسادتي.. فإذا أردت أن تسألني اسألني
هناك وأنا ملق برأسي عليها، وإن أردت أن تعرف الإجابة اعرفها
هناك قبل أن ألبس جسداً ليس جسدي، وأتحدث بلسان غيري،
ويتبدل العقل، وتتبدل الشخصيات.

وإذا أردت أن تعرفني اسبقني إلى هناك.. إلى الوسادة...

الهلوسة السادسة

ضاقت بي الأرض، وكأن لا أرض لي إلا هي.. وتوقف الزمان،
وكان عقارب الساعة تديرها دقات قلبي بجوارها، وانطفأت كل
أنوار المدينة، ولم تعد تشدني صهاريج مصابيحها، لم يبق لي إلا شبح
جسد تملكته قوى الطبيعة عندها.

الحزن بدعة ابتدعناها لأنفسنا لنخفي به كل عجز أمام القدر، وكل
صدمة من صدمات الزمان.

ولم أبصر سوى ذات القطار الذي حملني إلى ذات المدينة في أول
رحلة حاولت أن أكتشف فيها عالمًا لم أكن أراه إلا في قصاصات
الجرائد وشاشات التلفاز، حملني.. وكان ببهجة سفري ملايين
الأحلام والتوقعات والآمال التي أفرغتها عند قدم أنثى، لأسلمها
دروع واقعي وخيالي، وأرفع رايتي البيضاء، لأعود حاملاً رسالة
لأمثالي أنه لا مكان لنا في ذلك العالم.

وتصببت قطرات المطر، وبجواري كهل عجوز اتخذته رفيقًا بعد أن
علمنا بتعطل آخر قطار، وانصرفنا سويًا نتسكع كسكاري آخر الليل
لنبحث عن مواصلة تقلنا من سيارات الأجرة، وقد انسابت مني

الكلمات دون أن أدري لأروي له حكايتي حتى انتهيت؛ فتبسم
ملياً، ثم قال:

علام تبكي وقد استدعتك طبيبتك فأجبت ولم تعترض؟

فتعجبت قائلاً: وما دخل هذا بما رويته لك؟

فنظر نظرةً ثابتةً - في عيني كانت - للحظات، نقلت إلى صدري
لوغاريتمات حسيّة لم أستطع فك شفراتها، ثم انكسرت تلك النظرة
بانحناء عيناه نحو الأرض، ثم مال، وقبض على قبضة من الطين
الذي صنعته مياه المطر بما حمله القرويين أمثالي من أتربة
بأحذيتهم ليدنسوا بها تلك المدينة...

ونظر إلى حفنة الطين، وجذب يدي نحوه، ووضعها فيها، ثم
انصرف؛ فقد أرجف البرد جسده محارباً أمطار السماء، ليجلس على
مقعد انتظار غير آبه بما يدور حوله من أحوال جوية...

تَسَمَّرت، ولا أدري ما قصده من ذلك سوى أنه عندما أراد أن
يشعل سيجارته وانطفأت من المطر أيقظ فيّ أنني مدخن، فتوجهنا
إلى مقهى أشبه بأنه قد أغلق أبوابه، ومللم مقاعده، وحينما دلفنا..
أخبرنا العامل أنه أغلق - وبكل ابتسامة صافية - قائلاً:

طفينا ع الولعة.. بس تعالوا.. انتوا زباين آخر الليل.. اوقفوا جنب النار هنا يمكن تدفوا... أرسلكوا حجر معايا ولا أعملكوا سحلب يدفيكو..

فلم نجب؛ فكلانا حمل بما أثقل لسانه وأخرس عقله، وتوجهنا نحو النار لتندفأ بخجل؛ فتعالى صوته:
إيه يا أسيادنا.. ما تردوا ولا ارموا السلام.. ولا تكونوش مباحث.

فأجاب هو بهدوء الصقيع والشيخوخة.. لو مباحث مكناش دخلنا التلاجة يا معلم.

فعدت البسمة على أوداج عامل المقهى مرددًا.. يبقى أنت زومل في التلاجة، وحلال عليك أحلى حجر معسل سلوم في العالم.

كل ذلك وأنا ممسك بيدي بعضًا من بقايا حفنة الطين التي أذاب المطر معظمها، وكأنني تشبثت به أو بما أبتغيه من حكمته.

وبدأت أحسي القهوة، وينفث هو دخان شيشته في السماء، وكأنه يلفظ معه كل ما بداخله من أوجاع، ونظر متنهديًا إلى حفنة الطين بيدي، وتحدث بصوت متهدج حزين قائلاً:

كل أم تطلب وليدها وتبحث عنه ولا تستريح إلا باحتضانه.. انظر إلى حفنة الطين وستعلم أنك تقبض على أمك بيديك.. أليست أمانة الأرض وقد خلقنا الله منها؟

أعط لنفسك يا بني خمس دقائق في اليوم لتتأمل حفنة الطين فقط، وتذكر أن حباتها قد تكون طافت العالم برياح أجبرتها أو قوافل راحلين أجلتها أو أجساد موقى قد خلفتها أو... أو..... ثم اجتمعت في قبضتك ولا تدري سوى أنك تقبض عليها وتشعر أنك تمتلكها وأنها مجرد حبات رمل...

تلك الحقيقة الظاهرة.. أما الحقيقة بذاتها أنها حملت أقدام ملوك وصعاليك وشيوخ وقساوسة وملحدين وعاهرات وكم حملت!

وكم أقيم عليها صلوات وذبح عليها قرابين! وأيضا كم ارتكبت معاصي عليها وقتل عليها مظلومين وانتقم الزمان من ظالمين! كم رحمة وكم لعنة حلت عليها! وكم من الأفراح والأحزان كان عليها!

كم ثمرة أخرجت من بطنها! وكم من أكل ثمارها! وكم من قصة حب نبتت عليها وفراق أضحى أصحابه عليها! كم من وليد استقبلته الحياة وفقيد توفاه الله عليها! كم من أخرج فضلاته عليها! وكم من ماء تبخر من البحار والأنهار وسار آلاف الأميال ليتساقط عليها كما الآن!

كم دنست وكم طهرت! كم وكم... تاريخ بشقيه.. إن نظرت لوجهه السيئ وكشفه الله لك ستلقياها من يدك، وستغسل يدك مائة مرة؛ لتتخلص من دناستها ورجسها.

وإن كشف لك عن وجهها الطاهر البريء لتروي لك كم أخرجت من ورودها وقصص حب وبطولات وتضحيات عليها ستحتضنها بكفيك، وستسألها عن قصة كل من مر عليها وكأنه أنت، وستقبلها بشفتيك كأنك تقبل كل من مروا عليها وتقبل ذكراهم، وتشم بأنفك عبق كل منهم، وكل أنثى وكأنها معشوقتك...

كذلك هي الدنيا، وهكذا كل منا.. ما أقبح رذائله! وما أجمل وأروع فضائله! فانظر له مما أردت من وجهيه...

ويكفيك أن تبحث في ذلك العالم عن قليل من الوفاء واقنع به؛ فالوفاء الكامل بضاعة باهظة الثمن لا وجود لها بزماننا، ستبتاعها من أسواق الماضي، وستدفع ثمنها ألف مستقبل، ومائة أمل تائه، وعشرات الدموع الحزينة.

لم أجه، ولم أقدر على أن ألقى حفنة الطين من يدي، وكأنني أتخذها لتسجل كلمات رجل أضنته الحياة؛ فاستوى حلوها ومرها، وتساوت أسنان أقلام الدهر بدفاتره.. فليكتب بأي قلم وبأي لون؛ فلن يأتي أسوأ مما مر عليه، ولن يسعده شيء سوى استعادته شيئاً فقد منه، لا أعلمه، ولن يحدث....

فلا مجال للماضي سوى ما خلفه مداده على أوراق حياتنا وما نقشه عليها، ولا فملك من تلك الحياة إلا أن نصفق أو نصعق، أو أن ندون بدفاتر ذاكرتنا ما امتنع القدر أن يعطينا نسخة مطبوعة

منه، ولا حيثيات حكمه فيما قضى.. وكأنه هو من امتلك حق النشر والتوزيع والتعليق والنقد.. ولا يدري، ولن يدري!

فلن تدري نفس ماذا ستكسب غداً وبأي أرض تموت...

قلت له مسرعاً، ولكني إن غفرت لها ذنوبها سيبقى عار لن أقوى على محوه يوماً.. إنها تتبع منظمات دولية مشكوك في أهدافها، وتعتنق أفكاراً شيوعيةً بمعنى الكلمة.

فقاطعني: ليبرالية قصدك؟

قلت: لا. حين تناقشنا تعصبت قائلةً: "كفانا من الديانات ما لاقينا.. الدين هو أفيون الشعوب يا عزيزي".

صدق ماركس حين قالها؛ فهو يهودي صدق حاله وأهداف ديانتته.. وصدقت هي بالأفيون الذي يتعاطاه أمثالهم ليخبئوا وقاحتهم وتعصبهم، ليطالبوا بحرية الرأي الأعمى والوحيد، وهو الفوضى واللاأخلاق والتحلل والهمجية والوحشية.

فقال: وهل حاولت إقناعها بأن تعود عن ذلك؟

قلت: لا.. ولكني متيقن من أنني إن غفرت كل دناستها فلن أعفر لها ذلك، وتلك خيانة وطن. أثرت أن أخون نفسي- وحدها بدلاً من أن أخون وطناً بأسره.

صمت هنية ثم عاد ليسألني:
وماذا قدم لك الوطن؟؟

ألم يجعلك يتيمًا ذات يوم وأفقدك كل ما تملك؟؟ خن الوطن أو
خن نفسك.. لن تختلف الأمور ولن تتغير، ولن يخرج علينا
المستولون في شاشات التلفاز، ولن يقيموا الحفلات ليكرموك على
تضحياتك أو حتى يسردوها لغيرهم....
اييبه.. مجانيين أمثالك يا عزيزي.....

فكم من التضحيات مات من أجلها أصحابها ولم يذكرهم أحد
لذلك! ويكرم من افتتح مشروع استثماري ليكون افتتاحًا لزيادة
ثروته، ويسألونه: كيف أتت إليك الفكرة؟؟ ولا مجال للمقارنة؛
ففي التضحيات الأفكار تأتي فقط، ولا مجال لدراسة الجدوى؛ فلن
تذكر سوى الخسائر؟؟

الحال تبدل يا صديقي.. اخلع عن نفسك بذلة العسكرية التي
خلعتك منها ولفظتك من فكيتها، والتحق بأحد نوادي كرة القدم،
وستصبح حديث الشعب، وما تحب وما تكره، وممن تزوجت،
ولماذا هي دون غيرها.....

من محباتك ومعجبوك، ومن تحب وأين تسكن، وسيهتم الناس بكل تفاصيل حياتك، خاصةً اللاتي لم يصبهن الزواج.. أليس هذا عرضاً مغريباً؟

أو خاطر وغامر، ومثل مشهداً إباحياً في أحد الأفلام التي يقولون عنها إنها تقدم رسالةً للمجتمع، ويلبسونها ثوب الفضيلة والعفاف ليخفوا دناستها وعهرها ونجاستها؛ وستصبح فتى الشاشة؛ لتغدق عليك شركات الإنتاج آلاف الجنيهات...

الحياة أصبحت لا تحمل بين أنيابها إلا الدماء.. وقوانينها تضاربت وتشابكت، فلطالما أبصرت أمّاً بأطفالها تبعثر أكياس القمامة لاهثةً قبل أن يبصرها أحد لتلتقط كسرة خبز تطعم بها أطفالها الجياع.. لا تقوى على التسول ومد اليد؛ فهناك من سبقها لذلك، وجعل من التسول مهنةً يحارب وينافس من أجلها.

لا عار في التسول.. إما العار في أن تتبدل القوانين؛ فيصبح الحديد ليناً والماء صلباً، ويتسول ذوو القدرة والصحة، ويموت جوعاً المساكين والضعفاء.. حتى الدول لا يتسول منها إلا ذوو القوة؛ فيمتصون دماء الضعفاء؛ ليزداد القوي في قوته، ويموت الضعيف من قلة حيلته.

وا أسفا على الجميع؛ فالكل يتغنى بعمر بن الخطاب كمثل أعلى في الحكم.. الجميع يبحث عن عمر.. يتحاكى عن عمر.. قبل أن تجد

عمر.. جد ناساً كمن عايشوا عمر.. أو جد الفضيلة التي سادت في
زمنه.. وأعدك بأننا سنجد ألف عمر وعلي.

ابحث عن يوقرك لذاتك قبل ممتلكاتك وأشياءك، جد الوفاء بينك
وبين أهل بيتك أولاً.. ثم أعدك بالوفاء من الوطن، اخلق الحب
بينك وبين كل من تعرفه.. وأعدك بمدينة فاضلة أفضل مما كتب
عنها الفارابي، وأعظم مما حلم بها أفلاطون.

تريد جواباً مني عن تساؤلاتك.. اذكر لي آخر مرة أمسكت ألف
واحدة منها دون ديون، وسأخلق القبعة وأنحني أمام تضحياتك
للوطن.

هل تعلم أن حسين سكر قد أصبح رجل أعمال ثم عضومجلس
شعب من تجارة أسلاك الكهرباء النحاسية المسروقة والكل يعلم
ذلك.. يكرمونه ويوقرونه لأنه خان الوطن وسرقه?!

ماذا حدث عندما احتوت سيارته؟ مئات من رجال الشرطة جاءوا
ليبحثوا عن الجاني!

اخلع عنك قميصك لترني مكان ما أصابك من رصاص الإرهابيين..
من الذي زارك بالمستشفى وأنت طريح الفراش؟ من الذي ذكرك
ممن تضحى من أجلهم؟ ومن اطمأن أنك لا زلت على قيد الحياة؟

اذكر لي ماذا كانت هدية الوطن لك، أم يهدك الوطن ستة أشهر
راحة وتكريماً قضيتها في دهاليز السجون؟ وألبسوك قيودهم
الحديدية في حفل زفاف هو جلسة محاكمتك، واهتم الناس بأمرك
وكنت حديث الصحافة والإعلام في خيانة الوطن..

ثم ضحك بتهكم مردفاً: أخف ما خَلَفَه الوطن بجسدك، ثم تحدث
عن الوطن.

أتدري يا بني ما أبكاني حقاً؟ إنه بعد ما لاقى الوطن من أوجاع،
وما حصد من تضحيات.. أفاجأ بإعلام قد حصره في أم كلثوم وعبد
الوهاب وحليم وسيد درويش...

هم من تقاضوا مقابلاً نظير أغانيهم الوطنية.. حينها كانوا
يستقبلون التهليل والتصفيق على المسارح بانحناءات بسيطة
تحافظ على كياستهم، أما نحن.. كنا نقابل الموت بالجملة،
والرصاص كذباب الصيف.. لا تعرف من أين يأتي وأين يختبئ.. ولنا
حفل ألعاب نارية كل يوم احتفالاً بالحرب، فتجد من بجوارك قد
فتته قبلة من العدو، أو دهست جسده دباباتهم وهشمت أضلعه
ورأسه!

ماذا فعل الوطن حينها؟ وماذا أعطانا لنعطيه؟ أنت في زمن الرخص
يا صديقي. . كلما ازدادت رخصاً ازدادت شهرةً وغنىً وتقديراً وحباً
لدى الجموع.

وكلما ازددت أخلاقاً ومبدأً وترفعت عن الرذائل وخانتك شجاعتك لمزيد من التضحيات ستظل تبذلها، ولكن من أجل آخرين ترخصوا وكوفئوا بدلاً عنك، ولم تنل أنت سوى بضعة أوراق ستدفع رسومها مثلك مثلهم.

لا شأن للوطن بتضحياتك وما سدده من رسوم وورده بحساب الوطن ببنوك الشعارات والحروب والمؤامرات.. ورقة أعدك أنها ستخلد اسمك بالأحوال المدنية.. هي تصريح دفن وشهادة وفاة....

وانصرف كل منا يلملم ملابسه خشية الصقيع، فما هب الصقيع حينها إلا بصحراء قلبي التي دمرت ما شيدته من بروج أحلام ورصفته من دروب خيالية لقطر الآمال، وإشارات انتظار للسعادة وضعتها خشية تهور في الحب..

حتى ضفتي نهر الشوق قد بعثرت عليها مقاعد انتظار اللقاء، وهبت رياح اليأس لتأخذها بعيداً حيث لا رؤية من أتربة الماضي القذر وأوراق أشجار الطبائع المدنسة.. فمن غاصت قدمه بالوحل لن تخرج نظيفةً، حتى وإن غسلها سيتشبث بعض الوحل بأظافره.....

ألف فكرة وفكرة كانت تصدم رأسي.. بل تصدم قلبي بالشحنات الكهربائية لتحييه؛ فما تزيده إلا كسلاً وخمولاً، حتى وصلت لمنزلي والبرد قد استهوته قدامي؛ لدرجة أنني بمجرد أن فتحت الباب حتى طرت كمجنون للحمام.

obeikandi.com

الهلوسة السابعة

رحلت ولم يقنع الوطن ولم تقنع الأقدار أنه لا مجال
للتضحيات في جعبتي التي خرجت بها من قرينتنا أكثر مما قدمت،
وأني ما عدت أملك شيئاً.. راحلاً لقريتي.. لتتلقفني أكف الناس
بالسلام الذي لا سلام فيه....

سلام تحتضني فيه قريتي كاحتضان الجسد لخلية صالحة بعد أن
تملك منها السرطان و تفسى فيها، وترقبني أعينهم بالشماتة تارةً
وبالشفقة تارةً أخرى...

وتنصبي على كرسي المثل للصغار في الصبر والصمود أمام المداد
الأسود الذي ما عرفت غيره، أو عبرة بباقي الألوان؛ فيعتبر غيري،
ويخرج من كهف التضحيات لدرب انتهاز الفرص بإضاءة شمعة
يهتدي بها في دربه، ويقراً ما دُونَ بيوميات حياته الروتينية،
وينشئ دفترًا ومستقبلاً لأولاده.. وبما تركته شمعته في جسد الوطن
هي الصورة الشخصية له في دفتره.....

هي وثيقة التعارف الأولى بينه وبين وطن لم يقبل ما ربت على
جسده بدلا من أن يغرس فيه شمعة....

زمن الشموع سيدي.. ولا ينقصك إلا أن تضع فتيل العمر فيه،
وتذيب بعضًا من شحوم الواقع لتصنع لك شمعةً تضيء بها يومك،
ومتى ألقيت رأسك على وسادتك فلا حاجة لك بها؛ فعلى الوسائد -
مهما ساد الظلام - لا حاجة لنا بالشموع.

ركبت القطار.. وتذكرت آخر لقاء مع الأستاذ سعيد الذي - بدلًا من
أن يهديني - حَيَّرني وتوهني في سراديب فكره المشرقة، وتذكرت
حينها عندما اتصلت به وسألته عن حاله فأخبرني أنه لم يرحل، وأنه
يجلس على ذات المقهى التي كانت قد جمعتنا ليلة الصقيع، ولم
أدر سوى أنني ساقطني قدماي له حتى جلست بجواره وهو ينفث
دخان شيشته، وتبسم وقال:

حمد الله على السلامة.. طمّني.. عملت إيه؟

فأجبت: في إيه؟

قال: مع الجو يا سيدي!

تنهدت وهربت أسراري وتساؤلاتي لأقصها عليه، وحاولت إفهامه:
أتدري أنني تَحَيَّرت فيها.. أراها بكل الزوايا.. وفي كل الحنايا..
هي ملاك كل ضوء.. وشبح كل ظلام.. أمل كل يائس.. ويأس كل
متفائل.. هي المنطق واللا منطق.. والمعقول واللا معقول.. هي
المقبول واللا مقبول.. الحقيقة والوهم، هي الشحنات الموجبة التي

تقذف في قلبي السعادة، والشحنات السالبة التي تنتزع كل آمالي
وأحلامي، هي الخجل والوقاحة.. الإقدام والإحجام.. العطاء
والشح.. الكرم والبخل.

لن تأخذ منها أكثر مما أرادت، ولن تسرف فيما أعطت، ولن يمنع
كرمها من أن تسلب.

هي الطغيان وفي جوفه الرحمة، وهي الرحمة مغلقة بالجور.. هي
صخرة الإلحاد يتفجر منها ينبوع الإيمان.. الشهوانية المطلقة والزهد
المطلق.

تَحَيَّرت وتهدت في بحور أفعالها وشطآن كلامها المعسول الذي هو
السم ذاته الذي يقتل دون أثر.. الموت البطيء في عينيها، والهلاك
في مقلتيها، والتهيه كل التيه في ملامح وجهها.

النشوة في ابتسامة أوداجها.. البأس في عقد جبينها.. اليتيم في ملمس
أناملها، والغدر بين أحضانها، والأنس في كنفها..

وأنا ما بين تلك الأضداد ومدلولاتها، وبين الوجهين مطبق عليّ، ولا
مفر سوى بضع أحلام وقطرات دموع تبلبل وسادتي.

أجابني بعصية: يا بني افهم.. أنا وأنت وهي وغيرنا عاهر ومؤمن
في ذات الوقت.. كلنا أضداد يا بني.

فازددت حيرةً، ولكنني ازدددت شوقاً لفلسفته العميقة البسيطة،
وكأنني أتذرع بمشكلكي لأستلهم منها ما قد يجعل المصائب تتعري
أمامي؛ فأدير لها ظهري كما أدرتة عندما ألقنت سلمى برأسها على
وسادتي، وصمتت حتى لا تتبعثر أوراق أفكاره وينصرف ذهنه؛
فازداد تيهاً، وأردف: لم تصلك فكري حين تقابلنا، ويجب على من
تحبها ألا تسكن قلبك، بل أن تقتلع مخك فتتنظفه مما علق به من
غباء.

وضحك ضحكةً صاخبةً انقطعت بنظرة إلى فحم الشيشة وهو
يضغط عليه ويسحب نفساً تلو الآخر قائلاً:
ما من شيء خلقه الله إلا يحمل المتناقضات.. الشيء وضده في
آن واحد، الإنسان والحيوان، حتى النبات يحمل ذرات فموه وبقائه
وذرات فنائه في آن واحد، حتى عالم المادة يحمل المتناقضين...

لا تبحث عن الحقائق؛ فما يظهر لنا شيء وما يخفى علينا هو
نقيضه، أجسادنا تنمو وتموت فيها مئات الخلايا يومياً ولا ندري،
حتى الحديد.. رغم صلابته به ثقوب هي أصل الصدأ وباب فنائه...

وأى شخص تعرفه.. أنا.. والدك.. والدتك.. والدتي.. يحمل بين
جنباته شخصين.. الأول مؤمن، والثاني عاهر.. الكل صديقي.. حتى
أنا، ولا أسلم من العهر شبراً...

انظر لدقيقة إلى من يمر أمامنا ونحن جلوس، ستجد الشيخ والراهب والراقصة والعارية والفاجرة والمتدين والمتسكع واللاهث وراء المادة والمهرول خلف شهوته.. ثم أجب على نفسك: كيف حكمت على كل منهم بوصفه؟

سأوفر عليك أنا عناء الإجابة.. حكمت من المظهر والظاهر لك، أما السرائر.. فلا تدري عنها شيئاً، وما أدراك.. فقد يكون الشيخ زانياً، وكم من حالات تيقناها! والعاهرة قد تكون عائلة لأسرة قد جاعت جوع البادية ولأم أسكنها المرض الفراش...

مسرح للجميع.. الكل يرتدي زي ما أتقنه من دور لإقناع الناس، وكلما ازداد إقناعاً ازداد أدواراً وبطولةً وازداد تصفيق الناس له، يحيون فيه تمثيله وليس دوره...

أنت وأنا منافقان ولا حرج.. من منا لم يوزع ابتسامات على أعدائه وخصومه؟ من منا لم ينشر الفرحة والترحيب بأناس اقتحموا حياته كرهاً واستعمروا أفكاره واستوطنوا منزله؟

قل لي من أنت أقل لك أنت كذاب.. لست فلان الفلان، ولا أن تخبرني أنك تحب كذا وتكره كذا، ولن أعرفك إلا إذا مررت إلى الهوة التي بلا قاع.. إلى داخلك.. إلى نفسك التي بين جنبيك....

قل لي ماذا تفعل في يومك وما الذي تحبه وأنت على وسادتك،
وسأعترف أي مخطئ، قل لي فيم تفكر وأنت على وسادتك وحدك
وأنت تحلق بخيالك دون قيود.. ماذا تريد أن تكون.. بم تحلم أن
تفعل.. من تستهويه ليعيش بعالمك ويسكن قلبك وبيتك بحق
وليس استجابةً للأقدار.. فكر وستدهش وتعجب حتى من
نفسك.

الكل عاهر، والكل مؤمن في نفس الوقت.. الشخصان بداخلنا، لكن
البيئة والظروف والعائلة ومتطلبات الحياة والدين والعادات
والتقاليد والخوف والقلق وعوامل أخرى كثيرة قد تنتصر- لإحدى
الشخصيتين على الأخرى، فلا تلغيها.. بل تخفيها ليس إلا.

ولتبتسم.. وليسخر من ذلك الشخص العاهر بداخلك؛ لأنني
تحدثت بلا حرج أو تكلف أيها العاهر المؤمن.

وتبسمت واستهواني الجدل.. كل ذاك الجدل بيني وبينه وهو لا
يعلم أنني أبتغي تأييداً ولو صوتاً واحداً لما اتخذته من قرارات
وقلت:

إذن إن كنت سيئاً.. فلماذا إذن أهواها؟ ولماذا لا تزال تطاردني
بتفكيري وتستعبد آمالي وتعانق أحلامي؟

قال: خيوط يا عزيزي، أو بالأدق خيوطك هي التي قتلتك كما
تفعل دودة القز بنفسها، فتظل تنسج حريراً حول نفسها حتى
تموت، أفق ولا تمت موتتها، ولا تنسج ما قد يرديك ويسعد غيرك..
ارحل عنها وعد لبلدتك، وكن كما كنت.. عد لزوجتك وأهلك.

وكأنه قد أيقظ في حنيني لبيتي، ووددت أن أخبره عن آخر لقاء
بيني وبينها حينما حاولت أن تقنعني بأفكارها الموءودة ولم تنجح،
حينما أيقظت في غيرتي على الوطن وحبى له، فحينما استباح
وطنيتي استبحت حبي لها.

obeikandi.com

الهلووسة الثامنة

كان آخر كلامي لسلمى:

تتفقي معي إننا كلنا بذور كما قال الله (عز وجل) في كتابه:
"كما بدأنا أول خلق نعيده". فعلام التسابق يا عجب الذنب...
ضحكت وأردفت تسأل: وما هو عجب الذنب ذاك؟!

قلت: خلقنا الله من خلية أولى وهي عجب الذنب، ونكتمل في بطون أمهاتنا، ونولد ونحيا وتتجدد كل الخلايا في الجسد إلا تلك الخلية، وغوت وتبقى هي لا تتحلل، ويوم البعث ينبت كل منا من عجب ذنبه.. هو البذرة التي سنبت منها.

دققي في تلك الفكرة وستعلمين إن كنت قرويةً مثلي أن البذرة المعطوبة تخرج وتنبت ولكن مشوهةً، ولا ثمر ولا خير فيها، وأنا لن أعيش معطوباً ولا مشوهاً، ولن أنبت كذلك.

الوطن هو الأم.. هو الملاذ لي.. أسيلت دماء تملأ المحيطات والبحار من أجله، ولم ينتظر من أسيلت دماؤهم مقابلًا، ولم يفروا من الموت، بل كانوا يحتضنون السيوف كما لو كانت هي الإبرة الطبية التي فيها شفاؤهم في زمن تفشى فيه المرض...

لا تطلبي مني أن أخون من بكيت بينهم وصرخت أول صرخة بعد ولادتي في وجههم، وكانوا هم كالمجانين ليحصلوا ولو على ابتسامة، وكانت أولى ابتساماتي البريئة في وجههم..

هم فرحوا بصراخي قبل ابتساماتي، ولم يضجروا منه.

أنت تطلين المستحيل من الأسير الذي لا حول له ولا قوة أمام ذاكرته الطفولية التي تتشبث بطفولته ونعومة أظافره في أحضانها، وتعلم الخطو على أرضها، أول قلم قبضت عليه أنامله في مدارسها، وأول كلمة قرأها في فصولها، وأنا عاجز والكل يتربص كل فعل حتى كبرت....

فأقابل مئات الوجوه التي ظلت ترقبني بأول خيانة لي.. كيف؟ فما هي إلا خيانة للثلاثين عاماً من عمري التي مرت، هي خيانة للدم في عروقي الذي نبت من ثمار نبتت من أشجار نبتت من أجساد أناس ضحوا بها من أجل الوطن....

وإن خنت الجميع.. كيف أخون عجب الذنب في؟ وهل سيغفر لي تلك الخيانة؟ وهل سيسامحني الله فيه؟ وكيف أخون بعض التراب الذي سيهال على جسدي بعد الممات؟

لن يقابل هو الخيانة بخيانة، ولن يلفظني، بل سيحتضني كما
احتضنت سرتي عند ولادتي وفضلاقي طيلة حياتي ولم أهده شيئا
جميلاً.. كل ما احتضنه الوطن مني قبيح.. فهل أكافئه بالأقبح؟!

فكّرني في الجميع.. ثم اتخذني قرارك أنت لا أنا، وحال تفكيرك
اذكري لنفسك شيئاً بسيطاً قدمته للوطن لتحاسبيه عليه،
وتتمردني كما كنت تتمردين على أمك التي ضحت بكل ما تملك من
أجلك.

تذكري حقيقةً واحدةً.. أننا ليس بيننا إله كي نوليه الحكم فيعطي
كل شيء من اللاشيء وكأنه بيده مقاليد الأمور...

واحد أحد هو من يقول للشيء كن فيكون، هو الله (عز وجل)،
ودون ذلك لا يملك أحد لنفسه شربة ماء ولا حتى أن يستريح حتى
في نومه عندما يلقي برأسه على الوسادة.

رَدّت بانكسار، وكأنني ما كسرت إلا وهماً آمنت به من الخواء،
وصوتها مرتعش وكأنني أصلحت الأوتار الدفينة بداخلها، والتي
يخلقها الوطن فينا بعد أن مزقتها هلاوس الخيانة وإباسهم الباطل
ثياب الحق، وقالت:

ولكنك لا تستطيع أن تنكر أنك متضرر من الأوضاع من الوطن،
ولا تنكر حقيقة أن هناك دولاً عربية - على الأقل - أكثر جمالاً
وأكثر احتراماً لآدميتنا، وأفضل من مصر بكثير.

فلم تلق مني سوي ضحكة لحيثها؛ فقد أخرسها كلامي لدرجة أنها
نسيت الشعارات والكلام المغلوط الذي ألبسوه ثوب الثقافة؛
فأصبح مثقفاً كل من تغنى به، وأجبتها:

يا سيدتي.. لا مجال للمقارنة بين وطني وسائر البلدان...

لا مجال للمقارنة بين معشوقة وأم.....

قالت: كيف؟

قلت: أنت المعشوقة، ولكن أمي أمي.. أنت اختارك بإرادتي
وبأهوائي، وأرغب بجمالك وأعشقتك وأذوب عشقاً فيك، ولكنك لا
تملكيني ولا أملكك.. فكل منا محل اختيار الآخر، ونتاج إعجاب
قد يزول كما الأشياء تفنى وتزول، ولا قوة في العالم تنسي المرء أمه.

أما هي.. هي الأم.. لم تكن محل اختياري، ولكنها تملكني، لا راحة
إلا في أحضانها، لا حرج في حضورها، ولا تصنع أمامها، تقبلتني
عريانياً لا لمتعة مثلك، بل لتنظفني بحب دون تأدُّ، وتقبلت بكائي
على صدرها قبل الابتسامة في وجهها.

أعطتني دون مقابل.. طببتني بضمه صدرها وحنانها دون أن
يسعفني طبيب؛ فهي قد لا تملك ثمن الدواء، ولكنها تملك ما لا
تملكه أكبر شركات الأدوية في العالم.

ولم أفكر يوماً هل هي جميلة أم لا، ولم أجد فيها العيون الزرقاء
ولم تكن شقراء ولا ناصعة البياض مثلك، ولكنها تملك ما لا تملكينه
أنت، وتمنحني ما لا تقوى أي امرأة على أن تعطيني إياه.

هي تعنفني وتقسو أحياناً، ولكني أستعطفها؛ فليس لي أم غيرها،
ولا امرأة تحل مكانها لأهمرد.

وعلى من أهمرد.. على من اتصل جبلي السري بأحشائها فاستنزفت
دماؤها في أحشائي وكلما أخبروها بذلك ازدادت فرحاً!؟

سأرحل عزيزتي، وفكري في كلامي لنفسك وليس لي؛ فهناك قبر
أمي وبعض من بقايا وصاياها لي، سأعود إليها وأتحسس رائحتها
التي استاء الناس منها لانشغالها بي حينما كنت طفلاً، تلك الرائحة
هي من تعيدني للحياة من جديد كلما قتلتني حلم، وتعطيني قوةً
للسير كلما تعثرت قدمي بعثرات درب الحياة، وأطمئن على ذاك
الخاتم الفضي المتبقي عندها بعد أن أنفقت كل ما تملك علي وهو
يخدش رأسي حينما تمسح بيدها على شعري.

obeikandi.com

الهلوسة الخامسة

واستغرقت في نومي حتى وصلت محطة بلدتنا.. كنت أفتش هناك بين كراكيب النساء وكانت زوجتي هنا قانعةً بكل شيء.. تصون كل ذرة في نفسها وتترزين وتتجمل طيلة الأسبوع ليوم واحد وهو إجازتي التي أقضيها معها....

زواج صالونات.. نعم، وكنت أظن أنني ما تزوجتها إلا كما أدخلوني للمدرسة؛ لأن سني تطلب ذلك، ونقلوني من صف لصف لسني وتخرجت لسني وتزوجت لسني، وأنا ظن أنني أسبق الزمن، والحقيقة أن الزمن هو من يسوقني ولا أدري إلى أين وإلى متى...

قدر ونصيب كما يسمونه وليس المهم المسميات؛ فالكل مستاء من الزواج والارتباط، والكل يعتريه الشكوى وأنا لا أقوى أن أفسر ذلك سوى أنها الألفة هي من تفعل بنا ذلك....

أن تألف شيئاً فلا تشعر بوجوده، وأن تألف شخصاً فتعتاد وجوده في حياتك.. موجود فقط.. يؤدي ما عليه ويطالب بما له.

كانت هي ذلك الشخص بالنسبة لي.. كما الأب حين نتمرد عليه، ونتمرد على قراراته، وننعت تصرفاته بالرجعية والقصور، ولا نرضى

برأيه، وذلك لسبب واحد.. أننا ألقناه.. وألقنا وجوده؛ فوجوده
أنسانا عشقنا له، وأنسانا كل فضل له علينا، ونسى أننا من صلبه،
حينما قرر الإقلاع عن احتضان الوسادات، وفعل فعلتنا وتزوج....

هو موجود؛ فلا نأبه به.. وحين يرحل عن دنيانا يرحل معه كل
شيء.. ففتحسس رائحته في كل أشياءه.. ستفتقد كل كلمة سمعتها
منه يوماً، ستفتقده حتى وأنت على وسادتك بعد أن طرت فرحاً
بأن وسادتك أصبحت بعيداً عنه لتتحرر من قيوده.

كل القيود التي هربت منها يوماً ستفتقدها وكأنها أطواق نجاة..
ستفتقده لدرجة أنك ستعشق وتغرم بكل من يذكره ويذكر سيرته،
كلنا نعلم ذلك ولكن الألفة هي القاتل المأجور الذي يقتل كل
شعور دفين فينا...

فأخرجت من حافظتي الخطاب الذي أرسلته إلي زوجتي في آخر
خلاف بيننا لأعيد حساباتي معها، لأرتب حياتي من جديد، لأستقبل
الحقائق بعيداً عن افتراضات الخيال، قليلاً ما تشتكي، نادراً ما تشور
ولكنها أمسكت القلم لتتبع ذات نهج أشياء انتهجتها يوماً لتخبرني
وتقول:

زوجي....

نعم زوجي.. فتأبى أناملني أن تكتب لك حبيبي كما في الماضي....

لا أطلب منك أن تبتز أنامل الروتين التي تعزف على أوتار الحياة
للحن الزوجية...

أستغيث بك لتحررني منه؛ فقد أصابني لدرجة أنني ما عدت
متمردةً كما كنت، أريد أن أتحرق من قيوده لأحرر نفسي من قيود
عشقك، وأفتدي نفسي من عبودية الأحلام التي لا تتحقق.

وهم الحب الذي يخلق كل الأحلام فينا.. لم تكن فقط على الوسادة
بل كنت أحملها معي لترافقني طيلة يومي وأتمنى بها غد أفضل.

كانت أحلامي كواقع في كل خلوة أسرقها من فراغ الأيام بدونك..
أراها في كل لحن وكل غنوة تعزف على أوتار تلك الأحلام الدفينة،
أصدقها بخيالي وأجبر جوارحي والأشياء من حولي أن تصدق تلك
الهلاوس فقد سئمت هلاوس الوسادات.

ماذا كنت تنتظر.. أن أظل كما أنا. وهل أنت كما كنت قديماً؟ لقد
تغيرت ألف مرة من أجلك ولم تبال.. إن كنت مجرد زوجة بالنسبة
إليك، فلم تعلم يوماً أنك كنت كل العالم لي...

كنت أحلامي البسيطة حين سمعت عن الحب، وكنت أحلامي
المبالغ فيها حينما تسلل الحب كفكرة إلى خيالي...

حتى الاهتمام.. لم أجنه رغم تضحياتي، ولم أكافئ عليها، ولم يكن هناك مقابل سوى بضع كلمات تسمعها لي كلما تلاقينا تغلق بها كل نافذة قد نطل منها على حياتنا، وتطفئ كل نيران الشوق بيننا.

توسلت إليك أن تضيف لحياتنا اهتماماً كما الأشياء الأخرى، أن تصنع لي رقفاً ضمن الأرفف المعلقة على جدران قلبك.

في كل مرة كنت ترحل فيها كنت أتوسد أملاً جديداً بأنك ستعود لي كما كنت في الماضي. . سترجع لتلتف حولي يداك لتحتضني بدلاً من تلك الوسادة التي استعضت بها عنك، تعود لتفتح ذراعيك لي فقط وتبتسم.. تحتضني أنت مرة؛ فقد ضممتك ألف مرة.

أحلام طفلة، ولكنها كانت كفيلاً بأن تحرك مياه الشوق التي ركبت في بحيرة الحب في قلبي؛ فمات فيها في أعماقها كل صبر.. وشاخت على شواطئها كل أشجار الأمل.

أن تقول لي كلمة. . فقط كلمة كانت كفيلاً بأن تمحو كل خطاياك لدي. . أن تحمل لي وردةً واحدةً. . كان ذلك كافياً بأن يطيب كل جراح خلفتها أشواك هجرانك وجفائك.

لا تعديني بما أخبرتك به.. وضع كل باقات الزهور على قبر الحب؛ فلن يكون ذلك شقيقاً لك، ولن يبعث مرةً أخرى؛ فقد التهمت جسده أرض الواقع بما أهلنا عليه من أتربة اليأس.

رحل وسيمقى شبحه ليطارد كلا منا كي لا نفعل بغيره - إن قدر لنا
الحب مرةً أخرى - ما فعلناه به.

واسترجعت حكايتي؛ فأنا الثالث الذي لم يلق بالسجن عبثًا، وإنما
أراد الله أن يكون السجن حمايةً لي من الظلم؛ فالسجن ظلم واحد،
والحكم حكم واحد، أما هناك.. فالظلم أنواع والحكم للأهواء
والرأي العام.

خدمات كانت توزع عليّ ولا أurd الظلم، لم يكن لي ظهر أرتكن عليه
كلما مالت علي الأهواء، نوبتجية أفرغ فيها طاقتي؛ فأنا لست
مستولًا سوى عن بضع محجوزين وبعض الدفاتر، ولا شأن لي بمن
معي؛ فهم يعلمون أكثر مني.

ولأنني أخشى- الظلم، ولأنني قروي روتيني، لا ينقصني سوى
طللبة ماء حتى اغتسل عندها كل صباح حاملًا منشفتي على
كتفي وصابونتي في يدي.

ولأن استراحتي أعلى القسم الذي أعمل به؛ فلا أعرف شيئًا عن
الخارج، سوى أن هناك أضرحةً أذهب كل حين لأدعو الله عندها،
تارةً عند السيدة نفيسة، وتارةً عند السيدة زينب، وتارةً عند
السيدة عائشة.

كل ما يشغل تفكيري: متى يأتي راتبي؟ وفي أي شيء سأنفقه؟ وهل سيفي بكشف حسابي بدكان بلدتنا؟ هل الراحة الأسبوعية مفتوحة أم لا؟ لأطير فرحاً إلى أهلي، لأفترش الرمال الصفراء في الصباح، وتداعب أشعة الشمس جسدي لتخرج كل مس لجن العمل وظلام النوبتجيات.

بعض من كسر الخبز القديم حلمي.. لأضعها على الجمر وأصنع الشاي بجوارها، وزوجتي هناك تتوسد قدمي وتلتحف يدي، وتخبرني أنها تشوقت لدفاء صدري؛ فقد سئمت دفاء النيران.

خطوط بأناملي على الرمال الصفراء بعثية هي بمثابة خطوط أكشط بها إرهاق العمل وملل الوحدة طوال الأسبوع.

لا أدعي حبي لبلدي، وإنما هو عشقي لمنزلي البسيط؛ فلا زال طينياً، ما زال ببيكارته التي انتهكت في كل قريننا، أقمنا منزلاً جديداً بجواره، ولكنني أعشق ذاك المنزل القديم، علبة لون ببضع جنيهاً كفيلاً بأن تصنع منه منزلاً جديداً.

الأشجار من حولك هي رفيقك بالنهار وأنيسك في ظلمات الليل، نسيم الصباح وزقزقة العصافير كفيلاً بأن تنسيك كل وحدة مللت منها، كل شيء له رونق وجمال، ويكفيني هذا؛ فالفناء هو أن تنفق ساعات عمرك في أحلام المادة.. أن تمتلك وتملك، وما أسهله

من حلم سيتحقق، ولكنك ستتعثر حتمًا في انفاقه؛ فالعمر ولى دون
ضحكة بلا حسابات، ودون ابتسامة بلا مقابل!

فالصبا إن ولى لن تبلغ بالشباب طيشه وعبثيته، وإن ولى الشباب
فلن تعيده إليك كل ملايين الأرض، عمر واحد وقصة واحدة..
وقررت أن أعيشها كما أحب ببساطتها، وألا أخاطر بأحداثها؛ فينفر
منها من سيروها عني يومًا.. كل شيء بسيط في حياتي تعلقت به
حقًا.

كل شيء له دور في حياتي إلا أنا.. زوجتي.. شقائي.. المنزل القديم
والأشجار يصنعون ألوان الطيف في حياتي، تزداد عاطفتهم، وودهم
يعلو إلا أنا، لا أقدم لحياتي شيئًا.

وفي أحد أيام عملي - وأنا باستراحتي - صحت أجفاني على أصوات
متعالية وصياح وأصوات أعيرة نارية، نظرت من النافذة وأبصرت
ألسنة النيران تخرج من نوافذ القسم.

لم أدر ماذا أفعل، ولكن الله أراد أن ينجيني، وضعت نقودي في
جيب سروال بيجامتي وسلاحي أسفل إبطي، وكلما أراد أن يسقط
أنقذ الله حياتي؛ فسقوط سلاحي وسط تلك الجموع هو بمثابة
سقوط لحياتي.

الكل يقتحم.. كل أثاث القسم محمول على الأكتاف.. البعض هنا يسرق، والآخر يصفى حساباته، والقليل يحرق صفحات التسجيل لينهي ملفه الإجرامي ويعيش نظيفًا، ولأنني القروي الساذج لم ينتبه إلي أحد.

لم يهمني كل هذا، ما يعنيني أن أنجو بنفسي.. طوفان عارم من الغضب اجتاح طرقات القسم وغرفه المشتعلة بالنيران، استحل الجميع كل شيء.. القتل.. السرقة.. السباب.. استحلوا كل شيء.

وما بين دفع هذا وجذب ذاك.. أنجو بنفسي.. حتى باب القسم.. بجواره مكتب نائب المأمور الذي كنا نسميه شيخ العرب؛ لفرط طبيته وتساهله وتسامحه، ودأبه على حل كل الخلافات وديًا بدلًا من عصا القانون التي لا تطبق إلا على الضعفاء أمثالهم.

يقف في ركن مكتبه الذي التهمت النيران معظمه ونفثت دخانها من على الجدران بعد أن احترقت ستائره، واحترق ما به من أدراج بعد أن تأكلت الأوراق بداخلها.

التف حوله بعض من كانوا هناك يطلبون منه فتح الخزينة عهدته، أعلم أن بها خاتم القسم ومرتبات الضباط والأفراد، ولكن لا حاجة لنا بها، فليس التضحيات أمام اللاأخلاق والهمجية.

استطعت أن أقنعه أن يفتحها بعد أن أوهمتهم بأنني معهم، وأن هناك حسابات بيني وبينه سأصفيها، وأخرجت سلاحي أمامهم وهددته، واصطحبته ولذنا بالفرار.

ونحن على بعد أمتار من القسم. . انتبه إلينا أحدهم حاملاً سلاحاً آلياً من أسلحة القسم، وأطلق النيران صوبنا، وصرخ: دول ضباط أهم.. فأخرجت سلاحي وأطلقت النيران نحوه.

أعلم أنني أصبته.. فليذهب إلى الجحيم قبل أن يقتلنا؛ فحياتي لم تكن أرخص من حياته، ونفسي لم تهني علي يوماً.

وأصبت أنا برصاصة في ذراعي، وتسللنا والخوف تطاردنا أشباحه، حتى وصلنا إلى منزله، وقارورة المداد الأحمر للدهر تسكب؛ فتملأ الشوارع بالقتل والذبح، كأنها لعنة من السماء حلت على الأرض.

وما إن وصلنا إلى منزله حتى استقبلته زوجته وأبناؤه بالبكاء والاحتضان، يتحسسون وجهه وكأن المعجزة أننا نجونا، وجلسنا نتابع الأحداث عبر التلفاز، وكل الأخبار ما بين قاتل ومقتول.

أعدوا لي غرفةً صغيرةً لأمكث فيها حتى الصباح، وأي صباح بعد أن ساد الظلام، وأفلت كل شمسو الفضيلة؟ وأي صباح هذا وأي عيون قد تغفو بعد ما كان؟ وأي ضمير سيتركني دون أن يحاسبني؟ وإن لم يفعل.. فهناك وسواس لن يدعني أخلد للنوم إلا وأنا مهزوم.

والحقيقة أن جميعنا قد خان، خنا الأخلاق والرحمة، خنا جميعاً
العدل، فمرحبا بكل الخيانات طالما خنا وحلت لعنة السماء علينا.

وهكذا الأيام.. كلما فتحت فاهها لتبتسم.. خدعتنا؛ فنفتت كل
السموم من أحشائها كما الثعابين، ولا نملك إلا أن نهرول لنطرب
أنفسنا مما خَلَفْتَهُ فينا.

وجلست بذات القطار عائداً كما الآن لذات الرمال التي ما ثارت
عليّ يوماً، وما سئمت مني وما آذنتني، وستحتضني حين وفاقي
عندما يهرول الجميع ليهيلوا الرمال على قبري، وهناك قريتنا التي
لن ترحمني ولن تغفر لي ما فعلته وما لم أفعله؛ فالفراغ في مساء
القرى كفيّل بأن يجعل من الجن ملائكةً، ومن البشر شياطين.

فما أكثر خرافات القرى وهلاوس يقظتهم، ولا أروع من أساطيرهم
وقصصهم، فمرحبا بي قصة المساء لديهم، ولكنني لم أحبك قصتي
لمن سيرويها منهم.

وأنا هناك - وبعد قرابة الثلاثة أشهر - علمت بالتحقيقات، ومثلت
لها، ووجهوا لي اتهامات بالقتل، وكأنك وجب عليك أن تُقتل وأنت
تصفق لقاتلك، وأن تُظلم وأنت موقر ظالمك، وكأن حق الدفاع عن
نفسك قد استُبيح كما استبيحت كل الحقوق الأخرى.

ومكثت في سجنى بضعة أشهر، كانت كفيلةً بأن أكره كل رمال
بلدتنا، ولكننى اشتقت أكثر إليها، وساقنى حنينى بأن أحلم بها كل
ليلة، وأتحسسها في كف زوجتى كلما أتت لزيارتى.

كان الحكم بالبراءة مما أسنده القانون إلي؛ فقد استخدمت حق
الدفاع الشرعى المكفول لى، البراءة هناك فى قاعة المحاكمة، وأين
البراءة من قاعات بلدتنا التى تتعقد كل مساء على الطرقات وفى
المقاهى وعلى كل كوبرى، سأحاكم كل يوم.. ولا دفاع لى، ولا شفيع
عندهم؛ فقد انتظروا طويلاً ليجددوا قصص المساء؛ فقد سئموا
أبطالها.

obeikandi.com

الهلوسة العائنة

ما إن وصلت لمنزلي حتى أخبرني الجميع أن زوجتي أجرت الأشعة وأخبرها الدكتور أن حالتها الصحية في خطر، وأنه يجب أن تجرى لها عملية جراحية على وجه السرعة، وبالفعل تواجدنا بالمستشفى، وانتظرنا حتى دخولها.

دلفت إلى غرفة العمليات وهي تبتم، رغم أن الجميع أخبروها بسوء حالتها وتدهورها... تبتم لي.. وكأنها قررت أن آخر ما تراه عيناها هو أنا... خجولة هي زوجتي.. حتى في أحلك حالات الخطر.

تبتم لي وحدي رغم كل كلامها وتمردها، تبتم وهي تخبرني أنها اشتاقت إلي وأنا أخبرها أنني اشتقت إليها، نسيت كل جروح الماضي، وتبتمت.

وأغلقت الممرضة باب غرفة العمليات، وكأنها أغلقت الباب على كل هلاوس الوسادة. . أغلقت الباب علي وليس عليها.

أنا حبيس غرفة العمليات وليس هي، هي تخضع لعملية خطيرة، ولكنها تخضع للحسابات والعلم والمعطيات وتوفيق الله أولاً، أما

أنا.. ففي داخلي ملايين الجراحين، وليس منهم بد؛ فدوائِي حينما تخرج هي وأرى ابتسامتها مرةً أخرى.

مئات الجراح نزفت فيّ ولا يستطيع أحد إبرائي منها سواها، هي الطيب لعالم بالمرض، ولكنها استخدمت معه دواءً طويل الأمد هو العشرة، مع قليل من فيتامين الود وبعض أقراص الشوق وكبسولات اللففة، مع محلول الصبر الذي تقطر بوريدي؛ فأنهكني بدلاً من أن يقويني.

أريدها أن تخرج بشدة، تخرج لأخبرها أنها منتهى العشق لي، وأنها رسول السماء لتهديني وتغفر بعض زلاتي، فلتخرج.. وسأضع خدي على قدميها كما تمنيت أن أفعل مع والدي،

فلتتماسك وتخرج لي وحدي، ولا حاجة لها بالجميع الذين كانوا يشغلون أوقاتها وأنا بعيد عنها، سأجعلها تستغني عن الجميع بي، ستفتقد الكل بي.

وبعد ثلاث ساعات تلفت فيها أعصابي ودعوت فيها الله وكأني ما دعوته من قبل. . خرجت تحت تأثير المخدر، وظلت متعباً طيلة إجازتي، واستلزم الأمر سفري وهي طريحة الفراش بالمستشفى، واستلزم القلب أن يبوح؛ فخططت مكتوباً لها، وتركته وسافرت.

كالمرهقين كنت، ولكنني بحاجة إلى أن أبوح.. أن أعترف.. أن أعدّها لمرة واحدة فقط، وسأفي بوعدتي وكل الوعود السابقة التي طالما تمت أن أفي بها.

حبيبتى...

أنت الفرحة التي تجعلني أنتشي؛ فتقبض أنفاسي وتذبذب حروفي وتراقص لساني؛ فتخرج كلماتي مبعثرةً كما السعادة التي خرجت من قلبي كقطرات المطر التي تتساقط من عناق سحابتين دون خجل وأمام الجميع.

كفانا ما ألفته مسامعنا من كلام وسئمته عقولنا، فلن أخبرك بأني أعشقتك، ولا أنني أحبك، ولا أن الشوق قد آلمني في مضجعي بعيداً عنك، سأخبرك فقط أنني لن أفقدك بعد اليوم.

سأستيقظ كل صباح لأضفي على كل أعمالي صبغة حبي لك، سأجعل الأشياء التي أصنعها تخبرك أنني لن أفقدك، حتى سلوكياتي وأخلاقي ستخبرك أنني أحبك...

لن أتعجل معرفتك ذلك.. حتى وإن توفاني الله.. ستبقى أفعالي وأشياي في كل صباح تخبرك أنك كنت الصباح لي.. حتى كدت لا أرى الظلام من ساعة عشقتك.

سأجعل ما تشبث بجدران منزلنا من دخان سجائري وكل ما نفر
منه أنفك يخبرك بأنك كنت العبق الذي يعطر أنفاسي، ستخبرك
ملابسي أنني ما ارتديتها إلا لك.

وفي كل مساء ستخبرك أبواب المنزل التي كنت أسكرها أنني ما
كنت أفر من المنزل إلا لأجدد بحر الشوق فيك؛ فيلقي لي بالدرر،
فكما الأطفال كنت عندما يمتنعون عن الطعام رغم الجوع.

ستتمرد وسادتي وتثور لتخبرك أنني ما وضعت رأسي عليها بدونك،
وما تسلق النوم إلى أجفاني إلا وأنا أفكر فيك، وأفكر في إبداع الله
الذي تجلى في وجهك.

لن أفقدك...

لن تهربي مني ومن أشياءي وصنائعي، حتى وإن أحرقت كل ما
بيننا.. سيطاردك الملل الذي كنت تشكينه إلي؛ فتتذكريني،
وستقودك أحلامك البسيطة لتحقيق؛ فتتذكريني، أو تفقدونها؛
فتتمنين أنني لا زلت موجوداً لأواسيك، حينما نلقي برأسينا على
الوسادة.

لن أفقدك...

ودعيني وذاكرتي لتقتص مني فيما أخطأت فيه؛ ففي الذاكرة جراح
تأبي الأيام أن تنسينا إياها، ومعاصي أبي الندم أن يحوها، وأحلام لا
مكان لها إلا على الوسادة...

"لا تسجن معرفتك و بادل كتبك"

القراءة هي الحياة، فنحن نقرأ لتتعرف على خبرات وحكايات الآخرين، نقرأ لتتعلم شيء جديد، لتتعرف من قرب على عوالم قد لا نعرف عنها شيء، لذا صديقي القارئ لا تسجن معرفتك وبادل كتبك مع الآخرين.

فلا تجعل هذا الكتاب يقف بين يديك وحدك، فمن خلاله قد تكون أستمتعت، وتذوقت متعة القراءة، وقد تكون تعرفت على شيء جديد، فلا تبخل عن من حولك بهذه المتعة.

موقع دار الكتب
"نحن نحترم الكتاب"

obeikandi.com

إصدارات موقع دار الكتب:

1. خواطر قلب في زحمة الحياة
2. قطعنا ثلج في تموز
3. المكنة طلعت قماش
4. على خطى مجهول
- 5.
6. مملكة الشياطين
7. سر الظل الخفي
8. سماحة
9. حقيقة الخديعة
10. السماء والآيات الكونية
11. المشجر المبسط في أنساب الحسن والحسين ج1
12. المشجر المبسط في أنساب الحسن والحسين ج2
13. المشجر المبسط في أنساب الحسن والحسين ج3
14. الشاطر حسن
15. صاحب المقام
16. إيران الخميني.. شرطي الغرب
17. رياح القبور
18. خواطر قلب في زحمة الحياة
19. ومضات

20. قصائد في عشق النساء
21. الفوضى العالمية.. من العصور الامبراطورية للتنظيمات السرية
22. الذين أوتوا الحب
23. كلام لن يفهمه غيرك
24. فيرجينيا سيكرت
25. مدينتنا غير الفاضلة..إرحلي
26. ومضات من الماضي
27. طال الرنا
28. حرية وكرامة
29. حوار مع النفس
30. كارمن
31. ومضات من الماضي
32. رياح القبور
33. الفرنسيين والشرق
34. اغتيال رفيق الحريري..
35. البحر الميت وكفة برج الميزان
36. العمر لحظات
37. آية الله الخميني بين الثورة و الطغيان.
38. قبل أن أموت.
39. فتاة شرقية.

40. كاتيا.
41. شمس.
42. التعلم النشط.
43. نبضات مغترب.
44. رأيت الشيطان.
45. حل قضية الجبر والاختيار وقضايا أخرى.
46. لوزة قطن.
47. حياة وحنين.
48. رحيق العمر.
49. عواطف.
50. الوهم.
51. الاعجاز العلمي في القرآن الكريم.
52. تاريخ مصر الفرعونية.
53. ديوان البت سعاد.
54. الكفايات المهنية للتعليم ما قبل الجامعي.
55. الموعد
56. اذا لم تزد على الحياة شيئا كن انت زائد عليها
57. عائدون من بين الانقراض
58. -حذاء جديد
59. حلقات مفرغة

60. يوميات طبيب في وطن مسلوب
61. أصحاب الكرّش
62. جئت ورحلت
63. شخصية مصر
64. ديور... ابن الحرب
65. رجل مدخر
66. ليلة في الرنفة
67. استراتيجيات التسويق عبر الفيس بوك
68. يوميات مع نفسى
69. سلسلة القائد المتوازن.
70. يوميات واحد فيس بوكاوى
71. نصف انسان
72. اريد ان اكون زوجة ثانية